السكينة

الخُلق المفْقُود

أسبابها . موانعها . ثمرتها

تأليف

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٢٠٠٢٢٢٥

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: السكينة الخُلق المفقود (أسبابها-موانعها-ثمرتها)

إعداد الشيخ: فيصل الحاشدي

رقم الإيداع: ١٦٧٥٨/٢٠١٧.

نوع الطباعة: لون واحد.

عدد الصفحات: ١٦٠.

القياس: ١٧×٢٤.

تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف أ/ يسري حسن.

٢٠١٧

الإدارة
دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات
دار القمة لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

E-mail
dar_aleman@hotmail.com

دار الإيمان المتحدة
أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار
جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

مُقدِّمةٌ

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ أَشْرَفِ اَلْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّ الْمُسْلِمَ مَا تَزَالُ تَمُرُّ بِهِ مَوَاقِفُ مُقْلِقَةٌ ، وَشَدَائِدُ مُحْرِقَةٌ ، وَبَلَايَا تُشَوِّشُ قَلْبَهُ ، وَتُزْعِجُ لُبَّهُ ، فَمِنْ نِعْمَةِ اللهِ –وَلَهُ الحَمْدُ– فِي هَذِهِ الحَالِ أَنْ يُثَبِّتَهُ وَيَرْبِطَ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَيُنَزِّلَ السَّكِيْنَةَ عَلَيْهِ لِيَتَلَقَّىٰ تِلْكَ الأُمُورَ أَوْ نَحْوَهَا بِقَلْبٍ ثَابِتٍ وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ .

وَإِنِّي لَمَّا فَتَّشْتُ عَنِ السَّكِيْنَةِ وَجَدْتُهَا خُلُقًا عَظِيْمًا مِنْ أَخْلَاقِ الْمُسْلِمَ ، بَلْ هِيَ أَصْلُ الأَخْلَاقِ الكَرِيْمَةِ ، لَكِنَّهَا تَكَادُ أَنْ تَكُونَ مَفْقُودَةً عِنْدَ كَثِيْرٍ مِنَ النَّاسِ .

فَاسْتَعَنْتَ بِاللهِ وَسَطَّرْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكَ وَسَمَّيْتُهَا :

السَّكِيْنَةُ الخُلُقُ المَفْقُودُ

أَسْبَابُهَا - مَوَانِعُهَا - ثَمَرَتُهَا

وَأَخِيْرًا : لاَ يَسَعُنِي إِلَّا أَنْ أَسْأَلَ اللهَ العَلِيَّ القَدِيْرَ أَنْ يَجْعَلَهَا خَالِصَةً لِوَجْهِهِ الكَرِيْمِ ، وأَنْ يَنْفَعَ بِهَا كُلَّ مَنْ قَرَأَهَا ، وَأَنْ يَجْعَلَهَا ذُخْرًا لِي وَلِوَالِدَيَّ، وَلِمَشَايِخِي .

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

وَكَتَبَهُ

أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه

تَعْرِيفُ السَّكِيْنَة

السَّكِينَة لُغَةً:

السَّكِينَةُ (فَعِيْلَةٌ) مِنْ السُّكُونِ ، وَهِيَ الوَدَاعَةُ والوَقَارُ مَأْخُوذَةٌ مِنْ مَادَّةِ (سَ كَ نَ) الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ خِلافِ الاضْطِرَابِ والحَرَكَةِ. يُقَالُ: سَكَنَ، يَسْكُنُ سُكُونًا :إِذَا ذَهَبَتْ حَرَكَتُهُ فَاسْتَقَرَّ وَثَبَتَ وَسَكَنَ الرَّجُلُ مِنَ السَّكِيْنَةِ » (١).

السَّكِينَة اصْطِلاحًا:

قَالَ الجُرجَانِيُّ -رَحِمَهُ اللّٰه-:

هِيَ مَا يَجِدُهُ القَلْبُ مِنْ الطُّمَأْنِينَةِ عِنْدَ تَنَزُّلِ الغَيْبِ ، وَهِيَ نُورٌ فِي القَلْبِ يَسْكُنُ إِلَىٰ شَاهِدِهِ وَيَطْمَئِنَّ » (٢) .

قَالَ ابْنُ القَيِّم -رَحِمَهُ اللّٰه-:

هِيَ الطُّمَأْنِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَالسُّكُونُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ، عِنْدَ اضْطِرَابِهِ مِنْ شِدَّةِ الْمَخَاوِفِ. فَلَا يَنْزَعِجُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ. وَيُوجِبُ لَهُ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ، وَقُوَّةَ الْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ (٣) .

---

(١) « المُحِيْطُ فِي اللُّغَةِ » (٢/ ٣١) .
(٢) « التَّعْرِيْفَاتُ » .
(٣) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (٢/ ٥٠٣) .

الفَرْقُ بَيْنَ السَّكِينَةِ والوَقَارِ :

السَّكِيْنَةِ وَالوَقَارُ كَلِمَتَان مُتَرَادِفَتَانِ إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا طَفِيْفًا بَيْنَهُمَا، «فَالسَّكِينَةِ هَيْئَةٌ نَفْسَانِيَّةٌ تَنْشَأُ مِنْ ثَبَاتِ القَلْبِ،قَالَ اللهُ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفَتْحُ : ٤] .

وَالوَقَارُ : هَيْئَةٌ بَدَنِيَّةٌ تَنْشَأُ مِنْ اطْمِئْنَانِ الأَعْضَاءِ ، قَالَ اللهُ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأَحْزَابُ : ٣٣] [١] .

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« السَّكِيْنَةُ التَّأَنِّي فِي الحَرَكَاتِ واجْتِنَابُ العَبَثِ وَالوَقَارُ فِي الهَيْئَةِ كَغَضِّ البَصَرِ وَخَفْضِ الصَّوْتِ وَعَدَمِ الالْتِفَاتِ » [٢].

قَالَ ابْنُ عُثَيْمِيْنَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

وَقَوْلُهُ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **عَلَيْكُمْ السَّكِيْنَةُ وَالوَقَارُ** » . الفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الوَقَارَ فِي الظَّاهِرِ، السَّكِيْنَةَ فِي البَاطِنِ، قَالَ اللهُ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فَيَكُونُ سَاكِنَ القَلْبِ مُطْمَئِنًّا وَقُورًا ، بِحَيْثُ لاَ يَتَحَرَّكُ حَرَكَاتٍ تُخَالِفُ المُرُوءَةَ » [٣].

---

(١) « الفُرُوق اللَّغَوِيَّة » (١/ ٢٨١-٢٨٢) .
(٢) « صَفْوَةُ الأَخْيَار» (٩٢) ، وَ« شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ مُسْلِم » (١٠٠/ ٥) .
(٣) « تَعْلِيْقَاتُ ابْنُ عُثَيْمِيْنَ -رَحِمَهُ اللهُ-عَلَىٰ « الكَافِي لابْنِ قُدَامَة » (٢/ ٢٢٢) .

وَصفُ السَّكِينَة

عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ : كَانَ رَجُلٌ يَقرَأُ سُورَةَ الكَهْفِ وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدُورُ وَتَدْنُو وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ مِنهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : « **تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالقُرْآنِ** » [١] .

وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ الحُضَيْرِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ ... الحَدِيْثُ وَفِيْهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **تِلْكَ المَلائِكَةُ كَانَتْ تَسْمَعُ لَكَ ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ** » [٢] .

قَالَ القُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- مُعَقِّبًا :

« فَأَخْبَرَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ نُزُولِ السَّكِيْنَةِ مَرَّةً ، وَمَرَّةً عَنْ نُزُولِ المَلائِكَةِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السَّكِيْنَةَ كَانَتْ فِي تِلْكَ الظُّلَّةِ، وَأَنَّهَا تَنْزِلُ أَبَدًا مَعَ المَلائِكَةِ وَفِي هَذَا حُجَّةٌ لِمَنْ قَالَ إِنَّ السَّكِيْنَةَ رَوْحٌ ، أَوْ شَيْءٍ لَهُ رَوْحٌ ، لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ اسْتِمَاعُ القُرْآنِ لِمَنْ لَا يَعْقِلُ » [٣].

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٩٦) ، وَ أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٥٠١٨) مُعَلَّقًا .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٩٦) .

(٣) « تَفْسِيرُ القُرْطُبِيّ » (٣/ ٢٤٩) .

هَذَا مَا قَالَهُ القُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-، والله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ذَكَرَ «السَّكِيْنَةَ» فِي القُرْآنِ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ ؛ مِنْهَا آيَةُ البَقَرَةِ هَذِهِ .

قَالَ الإِمَامُ السُّيُوطِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« وَكُلُّ سَكِيْنَةٍ فِي القُرْآنِ طُمَأْنِيْنَةٌ ؛ إِلَّا الَّتِي فِي قِصَّةِ طَالُوتَ؛ فَهِيَ شَيْءٌ كَرَأْسِ الهِرَّةِ لَهُ جِنَاحَانِ » (١) .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: كُلُّ سَكِينَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ طُمَأْنِينَةٌ، إِلَّا الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ » (٢) .

وَكَانَ الإِمَامُ الطَّبَرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- قَدْ حَكَىٰ تِلْكَ الأَقْوَالَ وغَيْرَهَا ، ثُمَّ قَالَ كَعَادَتِهِ : « وَأَوْلَىٰ الأَقْوَالِ بِالحَقِّ فِي مَعْنَىٰ « السَّكِيْنَةِ » مَا قَالَهُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَّاحٍ : مِنَ الشَّيْءِ تَسْكُنُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الآيَاتِ الَّتِي تَعْرِفُونَهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ السَّكِيْنَةَ فِي كَلامِ العَرَبِ « الفَعِيْلَةُ » مَنْ قَوْلِ القَائِلِ سَكَنَ فُلانٌ إِلَىٰ كَذَا كَذَا ، إِذَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَهَدَأَتْ عِنْدَهُ نَفْسُهُ ، فَهُوَ يَسْكُنُ سُكُونًا وَسَكِيْنَةً ، مِثْلُ قَوْلِكَ : عَزَمَ فُلَانٌ هَذَا الأَمْرَ عَزْمًا ، وَقَضَىٰ الحَكَمُ بَيْنَ القَوْمِ قَضَاءً وَقَضِيَّةً » (٣) .

---

(١) « الإِتْقَانُ» (١/ ٤١٨) .
(٢) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (٢/ ٤٧١) .
(٣) « تَفْسِيرُ القُرْطُبِيّ» (٤/ ٤٧١) .

صُورُ السَّكِينَةِ وَدَرَجَاتُهَا :

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ -الهَرَوِيُّ- رَحِمَهُ اللهُ- :

السَّكِيْنَةُ اسْمٌ لِثَلاثَةِ أَشْيَاءَ :

أَوَّلُهَا : سَكِيْنَةُ بَنِي إِسْرَائِيْلَ الَّتِي أُعْطُوْهَا فِي التَّابُوتِ .

السَّكِيْنَةُ الثَّانِيَةُ : هِيَ الَّتِي تَنْطِق عَلَىٰ لِسَانِ الْمُحَدَّثِيْنَ (١)، لَيْسَتْ هِيَ شَيْئًا يُمْلَكُ، إِنَّمَا هِيَ شَيْءٌ مِنْ لَطَائِفِ صُنْعِ الحَقِّ تُلْقَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ الْمُحَدَّثِ الْحِكْمَةَ ، كَمَا يُلْقَىٰ الْمَلَكُ الوَحْيَ عَلَىٰ قُلُوبِ الأَنْبِيَاءِ ، وَتَنْطِقُ بِنُكَتِ الحَقَائِقِ مَعَ تَرْوِيحِ الأَسْرَارِ ، وَكَشْفِ الشُّبْهِ .

أَقْسَامُ السَّكِينَةِ

١- عَامَّةٌ :

وَهِيَ الَّتِي تَخُصُّ عَامَّةَ الخَلْقِ ، وَهِيَ الَّتِي يَجِدُهَا العَبْدُ عِنْدَ القِيَامِ بِوَظَائِفِ العُبُودِيَّةِ ، وَهِيَ الَّتِي تُوْرِثُ الخُشُوعَ والخُضُوعَ ، وَجَمْعِيَّةُ القَلْبِ عَلَىٰ اللهِ بِحَيْثُ يُؤَدِّي عُبُودِيَّتَهُ بِقَلْبِهِ ، وَبَدَنِهِ قَانِتًا للهِ -عَزَّ وَجَلَّ-(٢) .

---

(١) وَمِنَ الْمُحَدَّثِيْنَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فَفِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَد(٨٣٤) (١/ ١٠٦)، بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ صَحَّحَهُ أَحْمَدُ شَاكِر فِي تَحقِيقِ الْمُسْنَد (٢/ ١٤٧) ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ : « ... وَمَا نَبْعُدُ أَنَّ السَّكِيْنَةَ تَنْطِقُ عَلَىٰ لِسَانِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢) « إِعْلامُ الْمُوَقِّعِيْنَ » ، لابْنِ القَيِّمِ (٤/ ١٥٥) .

٢-خَاصَّةٌ :

وَهِيَ الَّتِي تَخُصُّ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ بِحَسْبِ مُتَابَعَتِهِمْ ، وَهِي سَكِيْنَةُ الإِيْمَانِ، وَهِيَ سَكِيْنَةٌ تُسَكِّنُ القُلُوبَ مِنَ الرَّيْبِ والشَّكِّ ، وَلِهَذَا أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَىٰ المُؤْمِنِيْنَ فِي أَصْعَبِ المَوَاطِنِ ، أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفَتْحُ : ٤] .

فَذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ بِالجُنُودِ الخَارِجَةِ عَنْهُمْ ، وَالجُنُودِ الدَّاخِلَةِ فِيهِم ، وَهِيَ السَّكِيْنَةُ عِنْدَ القَلَقِ وَالاضْطِرَابِ » [(١)] .

السَّكِيْنَةُ الثَّالِثَةُ : هِيَ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَىٰ قَلْبِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقُلُوبِ المُؤْمِنِيْنَ .

وَهِيَ شَيْءٌ يَجْمَعُ قُوَّةً وَرُوحًا ، يَسْكُنُ إِلَيْهِ الخَائِفُ وَيَتَسَلَّىٰ بِهَا الحَزِيْنُ والضَّجِرُ وَيَسْكُنُ إِلَيْهَا العَاصِي والجَرِيءُ وَالأَبِيُّ .

أَمَّا السَّكِيْنَةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ :

الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : سَكِيْنَةُ الخُشُوعِ عِنْدَ القِيَامِ لِلخِدْمَةِ : رِيَاعَةٌ وَتَعْظِيمًا وَحُضُورًا .

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : السَّكِيْنَةُ الَّتِي عِنْدَ المُعَامَلَةِ بِمُحَاسَبَةِ النُّفُوسِ، وَمُلَاحَظَةِ

---

(١) « إِعْلَامُ المُوَقِّعِيْنَ » ، لابْنِ القَيِّمِ (٤/ ١٥٥) .

الخَلْقِ ، وَمُرَاقَبَةِ الحَقِّ .

الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : السَّكِيْنَةُ الَّتِي تُثَبِّتُ الرِّضَىٰ بِالقَسَم ، وَتَمْنَعُ مِن الشَّطْحِ الفَاحِشِ ، وَتُوقِفُ صَاحِبَهَا عَلَىٰ حَدِّ الرُّتْبَةِ ، وَ السَّكِيْنَةُ لاَ تَنْزِلُ إِلَّا فِي قَلْبِ نَبِيٍّ أَوْ وَلِيٍّ » [١] .

---

(١) « مَنَازِلُ السَّائِرِيْنَ » ، لِلهَروي (١/ ٨٣-٨٥) .

مَرَاتِبُ السَّكِيْنَةِ وأَخَصُّ أَقْسَامِهَا

أَعْلَىٰ مَرَاتِبُ السَّكِيْنَةِ وَأَخَصُّ أَقْسَامِهَا هِيَ : سَكِيْنَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ القَيِّم -رَحِمَهُ اللهُ- وَأَوْرَدَ لَهَا أَمْثِلَةً ، فَقَالَ : وَمِنْ أَمْثِلَتِهَا :

١-السَّكِيْنَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لإِبْرَاهِيْمَ الخَلِيْلَ -عَلَيْهِ السَّلَام-، وَقَدْ أُلْقِيَ فِي المِنْجَنِيْقِ مُسَافِرًا إِلَىٰ مَا أَضْرَمَ لَهُ أَعْدَاءُ اللهِ مِنَ النَّارِ ، فَلِلَّهِ تِلْكَ السَّكِيْنَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَلْبِهِ حِيْنَ ذَلِكَ السَّفَرِ .

٢-السَّكِيْنَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لِمُوسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَام-، وَقَدْ غَشِيَهُ فِرْعَونُ وَجُنُودُهُ مِنْ وَرَائِهِمْ ، والبَحْرُ أَمَامَهُمْ ، وَقَدِ اسْتَغَاثَ بَنُوا إِسْرَائِيْلَ : هَذَا البَحْرُ أَمَامَنَا ، وَهَذَا فِرْعُونُ خَلْفَنَا .

٣-السَّكِيْنَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ وَقْتَ تَكْلِيْمِ اللهِ لَهُ نِدَاءً وَنَجَاءً ، كَلامًا حَقِيْقَةً بِإِذْنِهِ .

٤-السَّكِيْنَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ وَقَدْ رَأَىٰ العَصَا ثُعْبَانًا مُبِيْنًا .

٥-السَّكِيْنَةُ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ رَأَىٰ حِبَالَ القَوْمِ وَعِصِيَّهُمْ كَأَنَّهَا تَسْعَىٰ ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيْفَةً .

---

(١) انْظُرْ : « مَوْسُوعَةُ الأَخْلَاق » الدُّرَر السُّنِيَّة (١/ ٥٧٧) .

٦-السَّكِيْنَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لِنَبِيِّنَا -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ صَاحِبِهِ عَدُوُّهُمَا، وَهُمَا فِي الغَارِ، فَلَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ تَحْتِ قَدَمَيْهِ لِرَآهُمَا.

٧- السَّكِيْنَةُ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَيْهِ فِي مَوَاقِفِهِ العَظِيْمَةِ، وَأَعْدَاءُ اللهِ قَدْ أَحَاطُوا بِهِ، كَيَوْمِ بَدْرٍ، وَيَوْمِ حُنَيْنٍ، وَيَوْمِ الخَنْدَقِ وَغَيْرِهِ.

فَهَذِهِ السَّكِيْنَةُ أَمْرٌ فَوْقَ عُقُولِ البَشَرِ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ مُعْجِزَاتِهِ عِنْدَ أَرْبَابِ البَصَائِرِ، فَإِنَّ الكَذَّابَ -لَا سِيَّمَا عَلَىٰ اللهِ- أَمْلَقُ مَا يَكُونُ، وَأَخْوَفُ مَا يَكُونُ، وَأَشَدُّهُ اضْطِرَابًا فِي مِثْلِ هَذِهِ المَوَاطِنِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلرُّسُلِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِم- مِنَ الآيَاتِ إِلَّا هَذِهِ وَحْدَهَا لَكَفَتْهُمْ (١).

(١) «إِعْلَامُ المُوَقِّعِيْنَ»، لابْنِ القَيِّمِ (٤/ ٢٠١-٢٠٢) بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ.

السَّكِينَةُ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

ذَكَرَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- «السَّكِينَة» فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ:

١-قَالَ اللهُ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البَقَرَة :٢٤٨] .

قَالَ ابْنُ عُثَيْمِينَ-رَحِمَهُ اللهُ-فِي تَفْسِيْرُ هَذِهِ الآيَةِ: « ﴿ ٱلتَّابُوتُ ﴾ شَيْءٌ مِنْ خَشَبٍ أَوْ مِنَ العَاجِ يُشْبِهُ الصُّنْدُوق ، يَنْزِلُ وَيَصْطَحِبُونَهُ مَعَهُمْ ، وَفِيْهِ السَّكِيْنَةُ-يَعْنِي أَنَّهُ كَالشَّيْءِ الَّذِي يُسْكِنُهُمْ وَيَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ-وَهَذَا مِنْ آيَةِ اللهِ » .

وَقَالَ-رَحِمَهُ اللهُ-: « وَصَارَ أَيْ ﴿ ٱلتَّابُوتُ ﴾ وَيَصْطَحِبُونَهُ فِي غَزَوَاتِهِمْ فِيْهِ السَّكِيْنَةُ مِنَ اللهِ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-:أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا هَذَا التَّابُوت سَكَنَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْشَرَحَتْ صُدُورُهُمْ »(١) .

٢-وَقَالَ اللهُ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التَّوْبَةُ :٢٦] .

---

(١) انْظُرْ : « تَفْسِيرُ القُرْآن » ،لِلعُثَيْمِيـن (٥/ ١٧٠) .

قَالَ القُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

« أَيْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَا يُسَكِّنُهُمْ وَيُذْهِبُ خَوْفَهُمْ ، حَتَّىٰ اجْتَرَؤُوا عَلَىٰ قِتَالِ الْمُشْرِكِيْنَ بَعْدَ أَنْ وَلَّوْا » (١) .

٣-قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التَّوْبَة :٤٠] .

قَالَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

« يَقُولُ اللهُ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ- فَأَنْزَلَ اللهُ طَمَأْنِيْنَتَهُ وَسُكُونَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ، وَقَدْ قِيْلَ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾

يَقُولُ : وَقَوَّاهُ بِجُنُودٍ مِنْ عِنْدِهِ مِنَ المَلائِكَةِ لَمْ تَرَوْهَا أَنْتُمْ ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ ﴾ وَهِيَ الشِّرْكُ ﴿ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ ﴾ لِأَنَّهَا قُهِرَتْ وَأُذِلَّتْ ، وَأَبْطَلَهَا اللهُ تَعَالَىٰ ، وَمَحَقَ أَهْلَهَا ، وَكُلُّ مَقْهُورٍ وَمَغْلُوبٍ، فَهُوَ أَسْفَلُ مِنَ الغَالِبِ ، وَالغَالِبُ هُو الأَعْلَىٰ ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ ﴾ ، يَقُولُ : وَدِيْنُ اللهِ وَتَوْحِيْدُهُ، وَقَوْلُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَهِيَ كَلِمَتُهُ ﴿ ٱلْعُلْيَا ۗ ﴾ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ الغَالِبَةُ » (٢).

---

(١) « تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ » (١٤/ ٢٦١) .

(٢) « جَامِعُ البَيَان » لِلطَّبَرِيِّ (٥/ ٣٢٦) .

٤-قَالَ اللهُ-سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفَتْحُ :٤] .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ-:

يَقُولُ اللهُ-تَعَالَى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أَيْ جَعَلَ الطُّمَأْنِيْنَةَ.

قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: وَعَنْهُ الرَّحْمَةُ .

وَقَالَ قَتَادَةُ-رَحِمَهُ اللهُ-: « الوَقَارُ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِيْنَ ، وَهُمُ الصَّحَابَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ ، الَّذِيْنَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَانْقَادُوا لِحُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ لِذَلِكَ، وَاسْتَقَرَّتْ زَادَهُمْ إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ »(١).

٥-قَالَ اللهُ-سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفَتْحُ :١٨] .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ-:

قَوْلُهُ : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الصِّدْقِ وَالوَفَاءِ ، والسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ وَهِيَ الطُّمَأْنِيْنَةُ ﴿ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ ﴾ .

---

(١) « تَفْسِيرُ ابْن كَثِيرٍ » (٧/ ٣٢٨) .

وَهُوَ مَا أَجْرَىٰ اللهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ مِنَ الصُّلْحِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ ، وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ مِنَ الخَيْرِ العَامِّ المُسْتَمِرِّ المُتَّصِلِ بِفَتْحِ خَيْبَرَ ، وَفَتْحِ مَكَّةَ ، ثُمَّ فَتْحِ سَائِرِ البِلَادِ وَالأَقَالِيمِ عَلَيْهِمْ ، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ العِزِّ وَالنَّصْرِ وَالرِّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ، لِهَذَا قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفَتْحُ :١٨] [1] .

٦-قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفَتْحُ :٢٦] .

قَالَ القُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

قَوْلُهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ أَيْ: الطُّمَأْنِينَةُ وَالوَقَارُ .

وَقَوْلُهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَقِيلَ: «ثَبَّتَهُمْ عَلَىٰ ا لرِّضَا والتَّسْلِيمِ ، وَلَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مَا أُدْخِلَ قُلُوبَ أُولَئِكَ مِنَ الحَمِيَّةِ » [2] .

---

(١) « تَفْسِيرُ ابْن كَثِيرٍ» (٧/ ٣٣٦) .
(٢) « تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ » (١٦/ ٢٨٨) .

القَاسِمُ المُشْتَرَكُ بَيْنَ آيَاتِ السَّكِينَةِ

القَاسِمُ المُشْتَرَكُ بَيْنَ آيَاتِ السَّكِيْنَةِ هُوَ مَا أَخْبَرَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- عَنْ إِنْزَالِهَا عَلَىٰ رَسُولِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعَلَىٰ المُؤْمِنِيْنَ فِي مَوَاضِعِ القَلَقِ وَالاضْطِرَابِ، فِي مَوَاضِعِ الشِّدَّةِ، كُلُّ هَذِهِ الآيَاتِ فِيهَا قَاسِمٌ مُشْتَرَكٌ وَاحِدٌ وَهُوَ أَنَّ المُؤْمِنَ فِي مَوَاضِعِ الشِّدَّةِ وَفِي مَوَاضِعِ الاضْطِرَابِ، وَفِي مَوَاضِعِ الخَوْفِ، وَفِي مَوَاضِعِ المِحَنِ تَأْتِي السَّكِيْنَةُ، فَقَدْ تَأْتِي مُصِيْبَةٌ يَفْرَقُ مِنْهَا الإِنْسَانُ، يَنْهَارُ لَهَا، تَخُورُ قُوَاهُ، يَنْسَحِقُ، أَمَّا المُؤْمِنُ تَأْتِي سَكِيْنَةُ اللهِ عَلَىٰ قَلْبِهِ، فَتَجْعَلُ وَقْعَ هَذِهِ المُصِيْبَةِ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، حَتَّىٰ لَوْ نَزَلَ بَلَاءٌ عَامٌّ، حَتَّىٰ لَوْ اشْتَدَّتْ المِحَنُ، حَتَّىٰ لَوْ ضَاقَتْ الأُمُورُ، فَإِنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- يُنْزِلُ سَكِيْنَتَهُ عَلَىٰ المُؤْمِنِيْنَ كَمُكَافَأَةٍ لَهُمْ عَلَىٰ اسْتِقَامَتِهِمْ.

يَوْمُ الهِجْرَةِ وَرَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَصَاحِبُهُ فِي الغَارِ، وَيَوْمُ حُنَيْنٍ، وَيَوْمُ الحُدَيْبِيَةِ كُلُّهَا مَوَاطِنُ قَلَقٍ وَاضْطِرَابٍ، فَاللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- يَخُصُّكَ بِسَكِيْنَتِهِ يَجْعَلُ قَلْبَكَ فِي طَمَأْنِيْنَةٍ وَرَاحَةٍ وَهُدُوءٍ، وَهَذَا بَعْضُ مَا يُعَامِلُ اللهُ بِهِ المُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ عَرَفُوهُ فِي الرَّخَاءِ، فَإِذَا جَاءَتْ الشِّدَّةُ عَرَفَهُمْ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-(١).

(١) «السَّكِيْنَةُ» لِلنَابُلْسِيِّ (ص٥). بِتَصَرُّفٍ يَسِيْرٍ.

قَالَ ابْنُ القَيِّم -رَحِمَهُ اللّه-:

« وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- إِذَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ: قَرَأَ آيَاتِ السَّكِينَةِ.

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي وَاقِعَةٍ عَظِيمَةٍ جَرَتْ لَهُ فِي مَرَضِهِ، تَعْجَزُ الْعُقُولُ عَنْ حَمْلِهَا -مِنْ مُحَارَبَةِ أَرْوَاحٍ شَيْطَانِيَّةٍ، ظَهَرَتْ لَهُ إِذْ ذَاكَ فِي حَالِ ضَعْفِ الْقُوَّةِ- قَالَ: فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيَّ الْأَمْرُ، قُلْتُ لِأَقَارِبِي وَمَنْ حَوْلِي: اقْرَءُوا آيَاتِ السَّكِينَةِ، قَالَ: ثُمَّ أَقْلَعَ عَنِّي ذَلِكَ الْحَالُ، وَجَلَسْتُ وَمَا بِي قَلْبَةٌ [(١)].

وَقَدْ جَرَّبْتُ أَنَا أَيْضًا قِرَاءَةَ هَذِهِ الْآيَاتِ عِنْدَ اضْطِرَابِ الْقَلْبِ بِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ. فَرَأَيْتُ لَهَا تَأْثِيرًا عَظِيمًا فِي سُكُونِهِ وَطُمَأْنِينَتِهِ.

وَأَصْلُ السَّكِينَةِ هِيَ: الطُّمَأْنِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَالسُّكُونُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ عِنْدَ اضْطِرَابِهِ مِنْ شِدَّةِ الْمَخَاوِفِ، فَلَا يَنْزَعِجُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ، وَيُوجِبُ لَهُ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ، وَقُوَّةَ الْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ.

وَلِهَذَا أَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ- عَنْ إِنْزَالِهَا عَلَىٰ رَسُولِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوَاضِعِ الْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ، كَيَوْمِ الْهِجْرَةِ، إِذْ هُوَ وَصَاحِبُهُ فِي الْغَارِ وَالْعَدُوُّ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ، لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآهُمَا، وَكَيَوْمِ حُنَيْنٍ، حِينَ وَلَّوْا مُدْبِرِينَ مِنْ شِدَّةِ بَأْسِ الْكُفَّارِ، لَا

---

(١) قَلْبَةٌ: أَيْ لَيْسَ بِهِ عِلَّةٌ.

يَلْوي أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَحَدٍ ، وَكَيَوْم الْحُدَيْبِيَةِ حِينَ اضْطَرَبَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ تَحَكُّم الْكُفَّارِ عَلَيْهِمْ، وَدُخُولِهِمْ تَحْتَ شُرُوطِهِمُ الَّتِي لَا تَحَمَّلُهَا النُّفُوسُ ، وَحَسْبُكَ بِضَعْفِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-عَنْ حَمْلِهَا-وَهُوَ عُمَرُ- حَتَّىٰ ثَبَّتَهُ اللهُ بِالصِّدِّيقِ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-(١) .

(١) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْـنَ » (٢/ ٤٧١) .

السَّكِينَةُ في السُّنَّة الصَّحِيحَة

١ -السَّكِينَةُ في الصَّلَاةِ :

السَّكِينَةُ تَلْزَمُ العَبْدَ في عِبَادَتِه كُلِّهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ الصَّلَاةُ :

١ ـ السَّكِيْنَة في المَشْيِ إلَى الصَّلَاةِ :

المُصَلِّ يَمْشي إلَىٰ الصَّلَاةِ بِسَكِيْنَةٍ وَوَقَارٍ وَعَدَمِ الإسْرَاعِ في المَشْي ؛ لِأَنَّ الإنْسَانَ في حُكْمِ المُصَلِّي مِنْ حِيْنِ خُرُوجِهِ إلَىٰ الصَّلَاةِ إلَىٰ حِيْنِ يَفْرَغُ مِنْهَا ، وَقَدْ يَسْتَمِرُّ الحُكْمُ مَا دَامَ مُنْتَظِرًا لِصَلَاةٍ بَعْدَ الصَّلَاةِ في المَسْجِدِ .

فَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-إِذْ سَمِعَ جَلَبَةَ رِجَالٍ ، فَلَمَّا صَلَّىٰ قَالَ : « **مَا شَأْنُكُمْ ؟** » .

قَالُوا: اسْتَعْجَلْنَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ ، قَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**فَلَا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَعَلَيْكُمْ السَّكِيْنَةُ،فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**» (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **إِذَا سَمِعْتُمْ الإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَىٰ الصَّلَاةِ ، فَعَلَيْكُمْ السَّكِيْنَةَ**

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٣٥) ، ومُسْلِمٌ (٦٠٣) .

وَالوَقَارُ، وَلاَ تُسْرِعُوا ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا ، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا »(١). (٢).

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

« فِيْهِ النَّدْبُ إِلَىٰ إِتْيَانِ الصَّلَاةِ بِسَكِيْنَةٍ وَوَقَارٍ ، وَالنَّهْيُ عَنْ إِتْيَانِهَا سَعْيًا سَوَاءً فِيْهِ صَلَاةُ الجُمُعَةِ وَغَيْرِهَا ، سَوَاءً خَافَ فَوْتَ تَكْبِيْرَةٍ أَمْ لَا » (٣) .

٢ـ السَّكِيْنَةُ فِي القِيَامِ لِلصَّلَاةِ :

وَمِنَ السَّكِيْنَةِ فِي الصَّلَاةِ أَلَّا يَقُوْمَ المُصَلِّي إِلَىٰ الصَّلَاةِ حَتَّىٰ يَرَىٰ إِمَامَهُ لِحَدِيْثِ أَبِي قَتَادَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**إِذَا أُقِيْمَتْ الصَّلَاةُ فَلَا تَقُومُوا حَتَّىٰ تَرَوْنِي وَعَلَيْكُمْ السَّكِيْنَةُ**» (٤).

فَقَوْلُهُ : « **إِذَا أُقِيْمَتْ الصَّلَاةُ فَلَا تَقُومُوا حَتَّىٰ تَرَوْنِي وَعَلَيْكُمْ السَّكِيْنَةُ**» قِيْلَ ذَلِكَ : لِئَلَّا يَطْرَأَ عَلَيْهِ عَارِضٌ يُمْسِكُهُ عَنِ الإِسْرَاعِ لِلْخُرُوجِ فَيَشُقَّ عَلَىٰ النَّاسِ انْتِظَارُهُ قِيَامًا ، وَفِيْهِ جَوَازُ الإِقَامَةِ وَالإِمَامُ فِي مَنْزِلِهِ إِذَا كَانَ يَسْمَعُهَا » (٥).

وَقَوْلُهُ : « **وَعَلَيْكُمْ السَّكِيْنَةُ**» أَيْ : عَلَيْكُمْ بِالوَقَارِ وَالهُدُوءِ وَالطُّمَأْنِيْنَةِ.

---

(١) يُؤْخَذُ مِنْهُ:أَنَّ مَا أَدْرَكَهُ المُؤْتَمُّ مَعَ الإِمَامِ يُعْتَبَرُ أَوَّلُ صَلَاتِهِ ، فَيَبْنِي عَلَيْهِ فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٩٠٨) ، ومُسْلِمٌ (٦٠٢) .

(٣) « شَرْحُ النَّوَوِيُّ عَلَىٰ مُسْلِمٍ » (٢/ ٣٧٨) .

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٣٨) ، ومُسْلِمٌ (٦٠٤) .

(٥) « إِكْمَالُ المُعَلِّمِ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ » (٢/ ٥٥٦) .

٣ـ تَسْوِيَةُ الصُّفُوفِ فِي الصَّلَاةِ :

وَمِنَ السَّكِيْنَةِ فِي الصَّلَاةِ تَسْوِيَةُ الصُّفُوفِ ، فَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيْرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُسَوِّيْنَا فِي الصُّفُوفِ كَمَا يَقُومُ القَدَحُ حَتَّىٰ إِذَا ظَنَّ أَنْ قَدْ أَخَذْنَا ذَلِكَ عَنْهُ وَفَقِهْنَا ، أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ بِوَجْهِهِ إِذَا رَجُلٌ مُنْتَبِذٌ بِصَدْرِهِ فَقَالَ : « **لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ** » (١) .

قَالَ الخَطَابِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- :

« وَمَعْنَاهُ لُزُوْمُ السَّكِيْنَةِ فِي الصَّلَاةِ ، والطُّمَأْنِيْنَةِ فِيْهَا ، لاَ يَلْتَفِتُ وَلَا يُحَاكُّ مَنْكِبُهُ مَنْكِبَ صَاحِبِهِ » (٢) .

٤ـ الخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ :

وَمِنَ السَّكِيْنَةِ الخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ ، فَإِنَّ الخُشُوعَ يَتَضَمَّنُ السَّكِيْنَةَ وَالتَّوَاضُعَ جَمِيْعًا ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه :١٠٨] .

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ -رَحِمَهُ اللهُ- : «أَيْ: سَكَنَتْ وَكُلُّ سَاكِنٍ خَاضِعٌ خَاشِعٌ» . (٣)

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٧١٧) ، ومُسْلِمٌ (٤٦٣) .
(٢) « مَعَالِمُ السُّنَنِ » لِلخَطَابِيِّ ، وَعَنْهُ « عَوْنُ المَعْبُودِ » (٢/ ٣٦٩) .
(٣) « لِسَانُ العَرَبِ » بَابُ : الشِّيْنِ والخَاءِ ، ص (٣١٦) .

٥ـ الفَزَعُ إِلَى الصَّلَاةِ :

المُسْلِمُ كُلَّمَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَي الصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّ فِيهَا سَكِينَةً ، وَلِأَنَّ فِيهَا طُمَأْنِينَةً . فَعَنْ حُذَيْفَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ : « **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّىٰ** » (١).

فَقَوْلُهُ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: « **كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّىٰ** » أَيْ : غَلَبَهُ وَأَلَمَّ بِهِ وَشَغَلَهُ كَانَتْ الصَّلَاةُ مَفْزَعَةٌ لأَنَّهُ بِهَا يَحْصُلُ عَلَىٰ الطُّمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ ، كَمَا قَالَ العُلَمَاءُ .

أَمَّا المَسَاجِدُ فَاذْكُرْ فَضْلَهَا أَبَدًا ... إِنَّ المَسَاجِدَ مَنْجَاةٌ مِنَ الضَّجَرِ
فِيهَا السَّكِينَةُ لِلأَرْوَاحِ تَمْنَحُهَا ... سِرُّ السَّعَادَةِ مِمَّا جَاءَ فِي السُّوَرِ

٢-السَّكِينَةُ فِي الصِّيامِ :

الصَّائِمُ يَلْزَمُ والسَّكِينَةَ فَلاَ يَرْفُثُ وَلاَ يَصْخَبُ وَلاَ يَفْسُقُ وَلاَ يَجْهَلُ وَلاَ يُقَابِلُ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَالَ : « **إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ ، فَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْشَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّي صَائِمٌ** » (٢).

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد(١٣١٩)وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-فِي«صَحِيحِ أَبِي دَاوُد» (١٠٣٧).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١٨٩٤) ، ومُسْلِمٌ (١١٥١) .

وَعَنْهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَرْفُوعًا قَالَ : « **الصِّيَامُ جُنَّةٌ** - أَيْ وِقَايَةٌ - **فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلاَ يَفْسُقْ وَلاَ يَجْهَلْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ فَلْيَقُلْ : إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ** » [(١)] .

وَسَكِيْنَةُ رَمَضَانَ بِالأَمْسِ غَيْرُ سَكِيْنَةِ اليَوْمِ ، فَقَدْ كَانَ رَمَضَانَ لَهُ جَوُّهُ الخَاصُّ ، وَشَفَافِيَّتُهُ الفَيَّاضَةُ ، وَرَوْحَانِيَّتُهُ الخَاصَّةُ ، بَيْنَ قَارِئٍ لِكِتَابِ اللهِ، وَمُسْتَغْفِرٍ بِالأَسْحَارِ ، وَقَائِمٍ يُصَلِي لِصَدْرِهِ أَزِيْزٌ كَأَزِيْزِ المِرْجَلِ، الكُلُّ فِي هُدُوءٍ وَسَكِيْنَةٍ ، فَجَاءَ التِّلْفَازُ وَحَرَمَ النَّاسَ تِلْكَ السَّكِيْنَةَ بِأَفْلَامِ رُعَاةِ البَقَرِ، وَمُسَلْسَلاتِ العُنْفِ والجَرِيْمَةِ، وَجَوْلَاتِ المُصَارَعَةِ الحُرَّةِ ، وَمُبَارَيَاتِ كُرَةِ القَدَمِ.

وَالأَدْهَىٰ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، أَنْ يَخْدَعَ النَّاسَ فِي رَمَضَانَ بِبَعْضِ تِلْكَ الأَفْلَامِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الإِسْلَامِيَّةَ أَوْ (المُسَلْسَلاتِ الدِّيْنِيَّةَ) .

فَالمُخَنَّثِيْنَ مِنَ المُمَثِّلِيْنَ الَّذِيْنَ كَانُوا فِي شَعْبَانَ يُمَثِّلُونَ أَفْلَامَ الخَلَاعَةِ والزِّنَا وَالدَّعَارَةِ ، إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ ، مَثَّلُوا أَدْوَارَ الصَّحَابَةِ فِي تَمْثِلِيَّاتِهِمْ، وَالمُمَثِّلَةُ السَّاقِطَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي شَعْبَانَ ، تُقَبَّلُ عَلَىٰ شَاشَةِ التِّلْفَازِ وَيُمَارِسُ مَعَهَا الخَنَا والفُجُورُ تَخْرُجُ فِي رَمَضَانَ بِحِجَابٍ وَجِلْبَابٍ طَوِيْلٍ لِتُمَثِّلَ دَوْرَ الصَّحَابِيَّاتِ ، أَوْ زَوْجَةَ أَحَدِ الشَّخْصِيَّاتِ الإِسْلَامِيَّةِ ، أَيُّ مُغَالَطَةِ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١٩٠٤) ، ومُسْلِمٌ (١١٥١) .

أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ؟!! ، بَلْ أَيُّ مُنْكَرٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ؟!! ، وَنَحْنُ نَنْظُرُ وَنَتَقَبَّلُ الأَمْرُ بِشَكْلٍ طَبِيْعِيٍّ ، مَاتَتْ الغَيْرَةُ عِنْدَنَا حَتَّىٰ عَلَىٰ الصَّحَابَةِ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-(١) وَفُقِدَتْ السَّكِيْنَةُ عِنْدَنَا حَتَّىٰ فِي العِبَادَةِ .

٣- السَّكِيْنَةُ فِي الحَجِّ :

عَلَىٰ الحَاجِّ أَوْ المُعْتَمِرِ أَنْ يَلْزَمَ السَّكِيْنَةَ مِنْ حِيْنِ خُرُوْجِهِ مِنْ بَيْتِهِ حَتَّىٰ عَوْدَتِهِ إِلَيْهِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بَاجْتِنَابِ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ ، وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ فِي الحَجِّ مَا يَأْتِي :

١- الرَّفْثُ وَالفُسُوقُ وَالجِدَالُ :

لِقَوْلِ اللهِ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ [البَقَرَةُ :١٩٧] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ (٢) وَلَمْ يَفْسُقْ (٣) رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ** » (٤).

وَتِلْكَ الأُمُورُ غَيْرُ جَائِزَةٍ فِي غَيْرِ الحَجِّ إِلَّا أَنَّهُ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-أَكَّدَ فِي المَنْعِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ تَنْبِيْهًا عَلَىٰ زِيَادَتِهَا فِي الشَّرَفِ وَحُصُولُ السَّكِيْنَةِ تَبَعٌ لِذَلِكَ.

(١) « شَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرُ الهُدَىٰ والفُرْقَانِ » لِعَلِيِّ الشَّحْرُور (٢٣٧) .
(٢) الرَّفَثُ : اسْمٌ لِلفُحْشِ مِنَ القَوْلِ ، وَقِيْلَ الجِمَاعُ ، وَقَالَ الأَزْهَرِيُّ هِيَ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّ مَا يُرِيْدُهُ الرَّجُلُ مِنْ المَرأَةِ .
(٣) الفُسُوقُ : المَعْصِيَةُ ، قَالَهَا ابْنُ جَرِيْرِ الطَّبَرِيِّ عِنْدَ تَفْسِيْرِ سُورَةِ البَقَرَةِ آيَة (١٩٧) .
(٤) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١٧٩٨) ، ومُسْلِمٌ (٣٢٤٥) .

٢ـ الابْتعَادِ عَنِ الهُدُوءِ أَثْنَاءَ الحجِّ مَعَ المُزَاحَمَةِ :

وَمِنْ مَوانع السَّكِيْنَةِ الابْتِعَادِ عَنِ الهُدُوءِ أَثْنَاءَ الحَجِّ مَعَ المُزَاحَمَةِ ، فَعَلَىٰ الحَاجِّ أَوْ المُعْتَمِرِ لُزُوْمُ السَّكِيْنَةِ فِي السَّيْرِ وَعَدَمُ المُزَاحَمَةِ ، لِحَدِيْثِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ دَفَعَ مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَوْمَ عَرَفَه، فَسَمِعَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَرَاءَهُ زَجْرًا شَدِيْدًا وَضَرْبًا وَصَوْتًا لِلإبِلِ فَأَشَارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: « **أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِيْنَةِ** [١] ، **فَإِنَّ البِرَّ** [٢] **لَيْسَ بِالإِيْضَاعِ** [٣] » [٤] .

فَقَوْلُهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **عَلَيْكُمْ بِالسَّكِيْنَةِ** » أَيْ الطُّمَأْنِيْنَةُ فِي السَّيْرِ والهُدُوءِ فِيْهِ حَتَّىٰ لاَ يَحْصُلُ ضَرَرٌ وَلِئَلَّا يَخْرجُوا عَنْ حَدِّ السَّكِيْنَةِ بِالزَّجْرِ وَالإِيْضَاعِ وَأَمَّا الإِسْرَاعُ فِي المَشْيِ الَّذِي لاَ يُخْرِجُ عَنْ حَدِّ ا لوَقَارِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَشْرُوعٌ غَيْرُ مَمْنُوعٍ سِيَّمَا مَتَىٰ وَجَدَ فَجْوَةً ، فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **إِذَا وَجَدَ فَجْوَةً أَسْرَعَ** » [٥] .

وَتَتَأَكَّدُ لِزُومُ السَّكِيْنَةِ عِنْدَ زَحَامِ السَّيَارَاتِ سِيَّمَا عِنْدَ اشْتِدَادِ الزَّحَامِ فَيَسِيْرُ بِهُدُوءٍ وَسَكِيْنَةٍ وَعَدَمِ إِزْعَاجِ النَّاسِ بِمُنَبِّهِ السَّيَارَةِ، وَمَتَىٰ وَجَدَ فَجْوَةً

(١) السَّكِيْنَةُ : الطَّمَأْنِيْنَةُ فِي السَّيْرِ .
(٢) البِـرُّ : الطَّاعَةُ .
(٣) بالإِيْضَاع : الإِسْـرَاعُ .
(٤) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١٦٧١) .
(٥) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٢١٨) .

لِسَيَّارَتِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُسْرِعُ الإِسْرَاعَ المَسْمُوحَ لَهُ لِيُفْسِحَ الطَّرِيْقَ لِمَنْ بَعْدَهُ .

٤-السَّكِيْنَةُ عِنْدَ ذِكْرُ اللهِ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ :

السَّكِيْنَةُ تَلْزَمُ العَبْدَ عِنْدَ آدَاءِ العِبَادَاتِ ، وَمِنْ ذَلِكَ ذِكْرُ اللهِ وَقِرَاءَةُ القُرْآن، وَتَظْهَرُ السَّكِيْنَةُ ظُهُورًا تَامًّا عِنْدَ اتِّبَاعِ الآتِي :

١ـ ذِكْرُ اللهِ بِحُضُورِ قَلْبٍ وَتَجَرُّد :

العَبْدُ إِذَا ذَكَرَ اللهَ بِحُضُورِ قَلْبٍ وَتَجَرُّدٍ فِي عَمَلِهِ بِأَنْ يَجْعَلَهُ للهِ خَالِصًا ، كَانَ ذَلِكَ أَدْعَىٰ بِطَمَأْنِينَةِ قَلْبِهِ ، وَإِذَا اطْمَأَنَّ القَلْبُ بِذِكْرِ اللهِ حَصَلَتْ لَهُ السَّكِيْنَةُ وَلاَ بُدَّ .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرَّعْدُ:٢٨] .

فَقَوْلُ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ أَهْلِ الإِيْمَانِ أَنَّهُمْ إِذَا ذَكَرُوا اللهَ ، أَوْ ذُكِّرُو بِهِ اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ واشْتَمَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِيْنَةُ وَغَشِيَهُمْ الأَمْنَ والسَّلَامُ » (١).

٢ـ تِلَاوَةُ القُرْآنِ وَمُدَرَاسَتُهُ فِي بُيُوتِ اللهِ :

مَجَالِسُ تِلَاوَةِ القُرْآنِ وَمُدَرَاسَتُهُ مَجَالِسُ السَّكِيْنَةِ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **... وَمَا اجْتَمَعَ**

---

(١) «التَّفْسِيرُ القُرْآنِي لِلقُرْآن» (٧/ ١٠٩) .

قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِيْنَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ » [١] .

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« المُرَادُ بِالسَّكِيْنَةِ هُنَا الرَّحْمَةُ ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ القَاضِي عِيَاضُ [٢] ، وَهُوَ لِعَطْفِ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِ ، وَقِيلَ الطُّمَأْنِيْنَةُ وَالوَقَارُ ، وَهُوَ حَسَنٌ ، وَفِي هَذَا دَلِيْلٌ عَلَىٰ فَضْلِ الاجْتِمَاعِ عَلَىٰ قِرَاءَةِ القُرْآنِ فِي المَسْجِدِ وَهُوَ مَذْهَبُنَا وَمَذْهَبُ الجُمْهُورِ ، وَقَالَ مَالِكٌ : يُكْرَهُ ، وَتَأَوَّلَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ .

وَيَلْحَقُ بِالمَسْجِدِ فِي تَحْصِيْلِ هَذِهِ الفَضِيْلَةِ الاجْتِمَاعُ فِي بَيْتٍ أَوْ رِبَاطٍ وَنَحْوِهِمَا -إِنْ شَاءَ اللهُ- وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الحَدِيْثُ الَّذِي بَعْدَهُ [٣] ، فَإِنَّهُ مُطْلَقٌ يَتَنَاوَلُ جَمِيْعَ المَوَاضِعِ ، وَيَكُونُ التَّقَيُّدُ فِي الحَدِيْثِ الأَوَّلِ خَرَجَ مَخْرَجَ الغَالِبِ لَا سِيَّمَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فَلَا يَكُونُ لَهُ مَفْهُومٌ يَعْمَلُ بِهِ » [٤] .

---

(١) رَوَاهُ وَمُسْلِمٌ (٢٦٩٩) .
(٢) « إِكْمَالُ المُعَلِّمِ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ » (٨/ ١٩٥) .
(٣) يُشِيرُ إِلَىٰ الحَدِيْثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠١) ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ مَرْفُوعًا أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَرَجَ عَلَىٰ حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : « مَا أَجْلَسَكُمْ؟ » ، قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا لِلإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا ... » .
(٤) « شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ مُسْلِمٍ » (١٧/ ٢١-٢٢) .

حَلْقَةُ القُرْآنِ مَا أَبْهَىٰ رُبَاهَا أَنَا لَا أَعْشَقُ فِي الدُّنْيَا سِوَاهَا
رَوْضَــــةٌ نَــــاضِرَةٌ فَــوَّاحَــةٌ زَهَتِ الأَكْوَانُ مِنْ طِيبِ شَذَاهَا

٣ـ قِرَاءَةُ القُرْآنِ بِتَدَبُّرٍ وَتَمَهُّلٍ :

وَمِنْ مَوَاطِنِ السَّكِيْنَةِ قِرَاءَةُ القُرْآنِ بِتَدَبُّرٍ وَتَمَهُّلٍ ، فَعَنْ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقرَأُ سُورَةَ الكَهْفِ وَإِلَىٰ جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشِطْنَيْنِ فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو ، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَىٰ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «**تِلْكَ السَّكِيْنَةُ تَنَزَّلَتْ بِالقُرْآنِ**» [(١)] .

قَالَ ابْنُ عُثَيْمِيْنَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

تِلْكَ السَّكِينَةُ نَزَلَتْ بِالْقُرْآنِ ، لِأَنَّ السَّكِيْنَةَ تَنْزِلُ عِنْدَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ ، إِذَا قَرَأَهُ الإِنْسَانُ بِتَمَهُّلٍ وَتَدَبُّرٍ فَإِنَّ السَّكِينَةَ تَنْزِلُ حَتَّى تَصِلَ إِلَى قَلْبِ القَارِئِ فَيُنْزِلُ اللهُ السَّكِينَةُ فِي قَلْبِهِ [(٢)].

فَيَا قَارِئَ القُرْآنِ فَاطْلُبْ ثَوَابَهُ وَكُنْ طَائِعًا للهِ فِي السِّرِّ والجَهْرِ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٥٠١١) ، ومُسْلِمٌ (٥٤٨) .
(٢) «شَرْحُ رِيَاضِ الصَّالِحِيْنَ» (٤/ ٦٥١) .

٥-السَّكِينَةُ فِي الجِهَادِ :

السَّكِيْنَةُ تَلْزَمُ العَبْدَ فِي جِهَادِهِ ، وَهَلْ أُنْزِلَتْ آيَاتُ السَّكِيْنَةُ إِلَّا فِي الجِهَادِ، نَعَمْ فِي الجِهَادِ فِي أَصْعَبِ المَوَاطِنِ وَأَخْرَجِهَا ، فَلَا يَنْزَعِجُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ ، وَيُوجِبُ لَهُ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ، وَقُوَّةَ الْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ [١] .

٦-السَّكِينَةُ فِي السَّمْت :

عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ : « **مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ سَمْتًا وَهَدْيًا وَدَلًّا** » -وَفِي رِوَايَةٍ- « **حَدِيْثًا وَكَلَامًا بِرَسُولِ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-مِنْ فَاطِمَةَ ، كَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَامَ إِلَيْهَا ، فَأَخَذَ بِيَدِهَا فَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ ، وَكَان إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ إِلَيْهِ فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ فَقَبَّلَتْهَا، وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا** » [٢] .

قَالَ القَارِئُ-رَحِمَهُ اللهُ-: « سَمْتًا » أَيْ هَيْئَةً وَطَرِيْقَةً كَانَتْ عَلَيْهَا مِنَ السَّكِيْنَةُ وَالوَقَارِ .

قَالَ الشَّارِعُ-رَحِمَهُ اللهُ-: السَّمْتُ فِي الأَصْلِ القَصْدُ ، وَالمُرَادُ بِهِ : هَيْئَةُ أَهْلِ الخَيْرِ ، وَالتَّزَيِي بِزَيِّ الصَّالِحِيْنَ .

« وَهَدْيًا » أَيْ : سِيْرَةً وَطَرِيْقَةً ، يُقَالُ : فُلَانٌ حَسَنُ الهَدْيِ ، أَيْ حَسَنُ

---

(١) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (٢/ ٤٧١) .

(٢) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد(٥٢١٧) وَحَسَّنَهُ شَيْخُنَا الوَادِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-فِي الصَّحِيْحِ المُسْنَدِ» (١٥٩١).

المَذْهَبِ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا .

« وَدَلًّا »-بِفَتْحِ دَالٍ وَتَشْدِيدِ لَامٍ-فَسَّرَهُ الرَّاغِبُ بِحُسْنِ الشَّمَائِلِ وَأَصْلُهُ مَنْ دَلِّ المَرْأَةِ ، وَهُوَ شَكْلُهَا وَمَا يُسْتَحْسَنُ مِنْهَا ، وَالكُلُّ أَلْفَاظٌ مُتَقَارِبَةٌ .

قَالَ التُوربِشتِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-: « كَأَنَّهَا أَشَارَتْ بِالسَّمْتِ إِلَىٰ مَا يُرَىٰ عَلَىٰ الإِنْسَانِ مِنَ الخُشُوعِ وَالتَّوَاضُعِ للهِ ، وَبِالهَدْيِ ، وَمَا يَتَحَلَّىٰ بِهِ مِنَ السَّكِينَةِ وَالوَقَارِ إِلَىٰ مَا يَسْكُنُ مِنَ المَنْهَجِ المَرْضِيِّ »(١).

وَالمَجْدُ يُشْرِقُ مِنْ ثَلَاثِ مَطَالِعٍ ... فِي مَهْدِ فَاطِمَةٍ فَمَا أَعْلَاهَا
هِيَ بِنْتُ مَنْ هِي زَوْجُ مَنْ هِي أُمُّ مَنْ ... مَنْ ذَا يُدَانِي فِي الفَخَارِ أَبَاهَا ؟!!
هِي وَمْضَةٌ مِنْ نُورِ عَيْنِ المُصْطَفَى ... هَادِي الشُّعُوبِ إِذَا تَرُومُ هُدَاهَا

(١) «مُرْقَاةُ المَفَاتِيحِ» لِلقَارِي (٧/ ٢٩٦٩) .

السَّكِينَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الأَنْبِيَاءِ

الأَنْبِيَاءُ- صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلامُهُ - هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-وَأَكْثَرُهُمْ إِيمَانًا ، وَأَشَدُّهُمْ بَلاءً ، فَيُنَزِّلُ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-سَكِينَتَهُ عَلَيْهِمْ لِمَا يُلَاقُونَ مِنْ مَشَاقٍ عَظِيمَةٍ ، وَمِحَنٍ جَسِيِّمَةٍ .

وَلَكَ أَنْ تَتَأَمَّلَ حَالَ خَلِيْلِ اللهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَسُكُونَهُ وَهُوَ يُوَاجِهُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ، وَالنُّمْرُودَ، ثُمَّ تَأَمَّلَ حَالَهُ وَهُوَ يَتْرُكُ هَاجَرَ وَوَلَدَهُ الوَحِيْدَ إِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ،ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَهُ وَهُوَ يَهِمُّ بِذَبْحِ إِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-رَبَاطَةُ جَأْشٍ وَطُمَأْنِيْنَةُ قَلْبٍ فِي حِلِّهِ وَتِرْحَالِهِ ، وَنَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ، وَوَصْلِهِ وَهَجْرِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ-.

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَ كَلِيْمِ اللهِ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-وَهُوَ يُوَاجِهُ فِرْعَونَ وَيُثَبِّتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَقُولُ لَهُمْ : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأَعْرَافُ :١٢٨] .

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَهُوَ يُوَاجِهُ البَحْرَ أَمَامَهُ

وَفِرْعَونَ خَلْفَهُ فَتَقُولُ بَنُو إِسْرَائِيْلَ: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فَيُجِيْبُهُمْ : ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشُّعَرَاءُ:٦١-٦٢] .

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَ نَبِيِّ اللهِ يُوسُفَ-عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-فِي مُوَاجَهَتِهِ لِإِخْوَتِهِ وَلِلنِّسْوَةِ فِي مُرَاوَدَتِهِنَّ لَهُ ، ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَهُ-عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-بَعْدَ أَنْ تَوَلَّىٰ مُلْكَ مِصْرَ ، وَهُوَ يَتَوَجَّهُ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالدُّعَاءِ ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يُوسُفَ:١٠١].

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-حِيْنَ قَامَ يَصْدَعُ بِالحَقِّ فَنَالَهُ مَا نَالَهُ مِنْ صُنُوفِ الأَذَىٰ كَالخَنْقِ وَوَضْعِ الجَزُورِ عَلَىٰ ظَهْرِهِ الشَّرِيْفِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَحُوصِرَ فِي الشِّعْبِ ثَلَاثَ سِنِيْنَ،وَقِيْلَ عَنْهُ:سَاحِرٌ،كَاهِنٌ، مَجْنُونٌ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَهُوَ يُطْرَدُ مِنْ قَوْمِهِ فَيَخْتَبِيءُ مِنْهُمْ فِي الغَارِ فَيَقُولُ لَهُ صَاحِبُهُ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَىٰ قَدَمَيْهِ أَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، فَيَقُولُ : « **يَا أَبَا بَكْرٍ ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا** » (١) .

ثُمَّ تَأَمَّلْ سِيْرَتَهُ العَطِرَةَ وَكَيْفَ مَضَىٰ فِي دَعْوَتِهِ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ غَيْرَ عَابِئٍ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٨١) .

بِالصِّدِّ حَتَّىٰ أَتَمَّ اللهُ لَهُ النِّعْمَةَ .

فَشَقَّتِ الصَّمْتَ وَالأَنْسَامُ تَحْمِلُهَا   تَحْتَ السَّكِيْنَةِ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارِ
تَطْوِى الدَّيَاجِيْرَ مِثْلَ الفَجْرِفِي أَلَقٍ   تَرْوِي الفَيَافِيْ كَمِثْلِ السَّلْسَلِ الجَارِيْ

السَّكِينَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الصَّالِحِينَ

السَّكِينَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الصَّالِحِيْنَ، فَقَدْ وَصَفَهُمْ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- يَوْمَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفَتْحُ:١٨].

وَقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التَّوْبَةُ:٢٦].

وَكَانَتْ السَّكِينَةُ هِيَ سَمْتَهُمْ وَهَيْئَتَهُمْ يَوْمَ الأَحْزَابِ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأَحْزَابُ:٢٢].

وَتَأَمَّلْ فَتَىٰ قُرَيْشٍ الْمُدَلَّلَ مُصْعَبَ بْنُ عُمَيْرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عِنْدَمَا تَمْتَنِعُ أُمُّهُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ حَتَّىٰ تَمُوتَ وَيُعَيَّرَ بِهَا، فَيَأْتِيهَا بَعْدَ ثَلَاثٍ وَيَقُولُ لَهَا: لَوْ كَانَتْ لَكِ مِائَةُ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا مَا تَرَكْتُ دِيْنِي هَذَا لِشَيْءٍ. فَأَكَلَتْ وَشَرِبَتْ، ثُمَّ كَانَ ذَلِكَ دَأْبَهُ، فَيُهَاجِرُ إِلَىٰ الْمَدِيْنَةِ لِتَعْلِيمِ

أَهْلِهَا الإِسْلامَ ، وَهُوَ يَعِيْشُ شَظَفَ العَيْشِ رَاضِيًا عَنِ اللهِ ، ثُمَّ هُوَ يَمُوتُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَيُرَدِّدُ قَوْلَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٤٤] .

قَالَ ذَلِكَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بَعْدَ أَنْ قُطِعَتْ يَمِيْنَهُ وَشِمَالُهُ ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ ابْنُ قَمِئَةَ بِحَرْبَةٍ .

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ تَمَكَّنَتْ السَّكِيْنَةُ مِنْ نَفْسِ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ لِقَتْلِهِ ، فَقَامَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : «اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَرَىٰ إِلَّا وَجْهَ عَدُوٍّ ، وَلاَ أَرَىٰ وَجْهًا يُقْرِئُ رَسُولَكَ السَّلَامَ ، فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ » ، ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لَمَّا قُتِلَ وَهُوَ يُرَدِّدُ :

وَلَسْتُ أُبَالِي حِيْـنَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَىٰ أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرَعِي

وَذَلِـكَ فِي ذَاتِ الإِلَـهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَىٰ أَوْصَـالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

بَعْدَهَا قَامَ إِلَيْهِ أَبُو سَرُوعَةَ عُقْبَةُ بْنُ الحَارِثِ فَقَتَلَهُ (١) .

---

(١) انْظُرْ: « صَحِيحِ البُخَارِيّ » (٣٠٤٥)وَانْظُرْ : «السَّكِيْنَةَ صِفَةَ الصَّالِحِيْـنَ» لِلدُّكْتُور/ سَعِيْد عَبْدُ العَظِيْم -حَفِظَهُ اللهُ-، مَقَالٌ فِي الشَّبَكَةِ .

السَّكِيْنَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ العُلَمَاءِ وَطُلَّابِ العِلْمِ

السَّكِيْنَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ العُلَمَاءِ وَطُلَّابِ العِلْمِ بَلْ هِيَ سَجِيَّةٌ لَهُمْ ، بِهَا يُعْرَفُونَ وَمِنْ غِيَاضِهَا يَغْتَرِفُونَ .

قَالَ رَجُلٌ لِلشَّعْبِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ-: « إِنَّ فُلاَنًا عَالِمٌ ، قَالَ : مَارَأَيْتُ عَلَيْهِ بَهَاءَ العِلْمِ ، قِيْلَ لَهُ : وَمَا بَهَاؤُهُ ؟، قَالَ : السَّكِيْنَةُ ؛ إِذَا عَلَّمَ لاَ يُعَنِّفُ ، وَإِذَا عُلِّمَ لاَ يَأْنَفُ» [١] .

وَ قَالَ الشَّاعِرُ :

أَهْلُ الرِّوَايَةِ والدِّرَايَةِ وَالنَّدَى … فِي نُورِهِمْ -أَبَدًا- لَنَا اسْتِمْدَادُ
فَهُمْ إِذَا سُئِلُوا بِحَارُ مَعَارِفٍ … وَلَدَىٰ السَّكِيْنَةِ والنُّهَىٰ أَطْوَادُ

وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ فِي تَرَاجِمِ العُلَمَاءِ تَجِدْ ذِكْرَ مَا يَتَحَلَّىٰ بِهِ العُلَمَاءُ ، وَمِنْ ذَلِكَ السَّكِيْنَةُ بَلْ لَهَا صَدْرُ التَّرْجَمَةِ غَالِبًا وَتَأَمَّلْ تَجِدْ ، وَهَا أَنَا أَذْكُرُ لَكَ قَطْرَةً مِنْ مَطْرَةٍ :

جَاءَ فِي تَرْجَمَةِ الإِمَامِ مَالِكٍ -رَحِمَهُ اللهُ- :

« أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ تَنَظَّفَ وَتَطَيَّبَ ، وَسَرَّحَ لِحْيَتَهُ ، وَلَبِسَ

(١) « الحِلْيَةُ » (٤/ ٣٢٣) .

أَحْسَنَ ثِيَابِهِ وَجَلَسَ وَعَلَيْهِ السَّكِيْنَةُ وَالوَقارُ .

وَمِمَّا جاءَ فِي تَرْجَمَتِهِ -أَيْضًا- أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ الخَلِيْفَةِ العَبَّاسِيِّ المَنْصُورِ وَهُوَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ وَصَبِيٌّ يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ فَقَالَ :

تَدْرِي مَنْ هَذَا ؟، هَذَا ابْنِي وَإِنَّمَا يَفْزَعُ مِنْ هَيْبَتِكَ .

وَفِيْهِ أُنْشِدَ :

يَدَعُ الجَوَابَ فَلاَ يُرَاجَعُ هَيْبَةً ... وَالسَّائِلُونَ نَواكِسُ الأَذْقَانِ

نُوْرُ الوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى ... فَهُوَ المَهِيْبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ [١]

وَمِمَّا جاءَ فِي تَرْجَمَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللهُ- كَمَا يَصِفُهُ تِلْمِيْذُهُ المَرْوَذِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- « لَمْ أَرَ الفَقِيْرَ فِي مَجْلِسٍ أَعَزَّ مِنْهُ فِي مَجْلِسِ أَحْمَدَ ، كَانَ مَائِلاً إِلَيْهِمْ، مُقْصِرًا عَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَكَانَ فِيْهِ حِلْمٌ ، وَلَمْ يَكُنْ بِالعَجُولِ، وَ كَانَ كَثِيْرَ التَّوَاضُعِ تَعْلُوهُ السَّكِيْنَةُ وَالوَقارُ ، وَإِذَا جَلَسَ بَعْدَ العَصْرِ لِلفُتْيَا لاَ يَتَكَلَّمُ حَتَّىٰ يُسْأَلُ ، وَإِذَا خَرَجَ إِلَىٰ مَسْجِدِهِ لَمْ يَتَصَدَّرْ » [٢] .

قَالَ الشَّاعِرُ :

حَضَرْنَا وَالمُلُوكُ لَهُ قِيَامُ ... تَغُضُّ نَوَاظِرًا فِيْهَا انْكِسَارُ [٣]

---

(١) « شَرْحُ المُوَطَّأ » لِلزُّرْقَانِي ، المُقَدَّمَة (٥٣) .

(٢) « سِيَرُ أَعْلاَمُ النُّبَلاَءِ » (١١/ ٢١٨) .

(٣) « دِيْوَانُ السِّري الرَّفَاء » (٣٣٣)

وَقَالَ آخَرُ:

وَإِذَا ذَوُو الفَضْلِ اسْتَوَتْ أَقْدَامُهُمْ   وَجَدُوْهُ أَحْرَىٰ القَوْمِ أَنْ يَتَقَدَّمَا
وَمِنَ السَّكِيْنَةِ وَالوَقَارُ سُكُوتُهُ   وَإِذَا تَكَلَّمَ لَمْ تَجِـد مُتَكَلِّمًا (١)

وَقَدْ تَوَالَتْ نَصَائِحُ العُلَمَاءِ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ بِلزُوم السَّكِيْنَةِ، قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ-: « إِنَّ حَقًّا عَلَىٰ طَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَقَارٌ وَسَكِيْنَةٌ، وَخَشْيَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِأَثَرِ مَنْ مَضَىٰ قَبْلَهُ » (٢).

وَقَالَ بَكْرُ أَبُو زَيْدٍ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« التَّحَلِّي بِرَوْنَقِ العِلْمِ حُسْنُ السَّمْتِ، والهَدْيُ الصَّالِحُ مِنْ دَوَامِ السَّكِيْنَةِ وَالوَقَارِ والخُشُوعِ، والتَّوَاضُعِ، وَلِزُومِ المَحَجَّةِ بِعِمَارَةِ الظَّاهِرِ والبَاطِنِ والتَّخَلِّي عَنْ نَوَاقِضِهَا » (٣).

---

(١) « دِيْوَانُ حَيْدَر الحَلِي » (٨٧٥).
(٢) « الجَامِعُ لأَخْلاَقِ الرَّاوِي وَأَدَبُ السَّامِعِ » (١/ ١٥٦).
(٣) « حِلْيَةُ طَالِبِ العِلْمِ » (١٤٨).

أَسْبَابُ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ

السَّكِيْنَةُ مَنْزِلَةٌ مِنْ مَنَازِلِ المَوَاهِبِ لَاَ مِنْ مَنَازِلِ المَكَاسِبِ [١] .

لَكِنْ لاَ يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ أَنَّ المَوَاهِبَ مِنْ ثَمَرَاتِ المَكَاسِبِ فَأَنْتَ تَسْتَقِيْمُ كَمَا أُمِرْتَ واللهُ يُكْرِمُكَ ، فَالاسْتِقَامَةُ مِنَ المَكَاسِبِ والتَّكْرِيْمُ مِنَ المَوَاهِبِ.

وَفِيْمَا يَأْتِي ذِكْرُ أَسْبَابِ السَّكِيْنَةِ :

١ ـ الإِخْلَاصُ :

أَوَّلُ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الإِخْلَاصُ ، وَكُلَّمَا ضَعُفَ الإِخْلاصُ ضَعُفَتْ السَّكِيْنَةُ ، وَقَدْ قِيْلَ : « مَا الخَلَاصُ إِلَّا فِي الإِخْلاصِ » [٢] .

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

وَ الإِخْلاصُ وَالتَّوْحِيْدُ شَجَرَةٌ فِي القَلْبِ فُرُوعُهَا الأَعْمَالُ وَثَمَرُهَا طِيْبُ الحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا والنَّعِيْمُ المُقِيْمُ فِي الآخِرَةِ ، وَكَمَا أَنَّ ثِمَارَ الجَنَّةِ لاَ مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ ، فَثَمَرَةُ التَّوْحِيْدِ وَالإِخْلاصِ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ ، والشِّرْكُ والكَذِبُ وَالرِّيَاءُ شَجَرَةٌ فِي القَلْبِ ثَمَرُهَا فِي الدُّنْيَا ، والخَوْفُ والغَمُّ ، وَضِيْقُ الصَّدْرِ،

---

(١) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْـنَ » (٢/ ٤٧٠) .

(٢) « الإِعْجَازُ والإِيْجَازُ » لِلأَمِيْـر / قَابُوس (١١٩) .

وَظُلْمَةُ القَلْبِ ثَمَرُهَا فِي الآخِرَةِ الزَّقُومُ وَالعَذَابُ المُقِيْمُ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيْمَ -عَلَيْهِ السَّلَام-[1].

قَالَ الشَّاعِرُ:

مَا دَامَ رَائِدُنَا الإِخْلَاصُ فِي العَمَلِ ... لاَ بُدَّ نَبْلُغُ يَوْمًا غَايَةَ الأَمَلِ
أَمْرَانِ مَنْ يَعْتَصِمْ يَوْمًا بِحَبْلِهِمَا ... فَالنُجحُ رَائِدهُ فِي أَيِّمَا عَمَلِ
هُمَا الثَّبَاتُ وَتَوْحِيْدُ القُلُوبِ لِذَا ... إِلَيْهِمَا قَدْ دَعَانَا خَاتَمُ الرُّسُلِ[2]

وَقَالَ آخرُ يَمْدَحُ رَجُلاً تَحَلَّى بِالسَّكِيْنَةِ:

حُلَلُ السَّكِيْنَةِ وَالثَّبَاتِ لِبَاسُهُ ... وَالبِرُّ وَالإِخْلَاصُ فِيْهِ شِعَارُهُ
وَضَمِيْرُهُ التَّقْوَىٰ وَأُوتِيَ حِكْمَةً ... فَازْدَادَ مِنْهَا عَقْلُهُ وَوَقَارُهُ
وَالصِّدْقُ مِنْهُ وَالوَفَاءُ طَبِيْعَةٌ ... وَالعَفْوُ وَالصَّفْحُ الجَمِيْلُ وِثَارُهُ[3]

٢ـ العِلْمُ النَّافِعُ:

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ العِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي هُوَ كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَهُوَ العِلْمُ الَّذِي تَطِيْبُ بِهِ الحَيَاةُ وَيَنْشَرِحُ

---

(١) «الفَوَائِدُ» (١٦٤).
(٢) «صَيْدُ الأَفْكَارِ» (٢/ ٢٤٣)
(٣) «فَوَاتُ الوَفِيَّاتُ» (٤/ ٣٠٢).

بِهِ الصَّدْرُ ، فَأَهْلُهُ أَهْلُ السَّكِيْنَةِ وَالوَقارِ .

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

« قَدَ كَانَ الرَّجُلُ يَطْلُبُ العِلْمَ فَلاَ يَلْبَثُ أَنْ يُرَىٰ ذَلِكَ فِي تَخَشُّعِهِ وَهَدْيِهِ وَلِسَانِهِ وَبَصَرِهِ وَبِرِّهِ » (١) .

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

« فَالعِلْمُ النَّافِعُ هُوَ مَا بَاشَرَ القُلُوبَ فَأَوْجَبَ لَهَا السَّكِيْنَةَ ، والخَشْيَةَ ، وَالإِخْبَاتَ لِلهِ ، وَالتَّوَاضُعَ ، وَالانْكِسَارَ ، وَإِذَا لَمْ يُبَاشِرْ القَلْبَ ذَلِكَ العِلْمُ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَىٰ اللِّسَانِ ، فَهُوَ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ يَقُومُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ » (٢) .

وَمِنْ جَمِيْلِ مَا قِيْلَ فِي طُلَّابِ العِلْمِ النَّافِعِ :

أَهْلاً بِقَوْمٍ صَالِحِيْنَ ذَوِي تُقًى ... غُرِّ الوُجُوهِ وَزَيْنِ كُلِّ مَلاَءِ

يَسْعُونَ فِي طَلَبِ الحَدِيْثِ بِعِفَّةٍ ... وَتَوَقُّرٍ وَسَكِيْنَةٍ وَحَيَاءِ (٣)

٣ـ الإِيْمَانُ بِاللهِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الإِيْمَانُ بِاللهِ ، وَالإِيْمَانُ بِاللهِ هُوَ يُنْبُوعُ السَّكِيْنَةِ وَمَصْدَرُهَا .

---

(١) «شُعَبُ الإِيْمَان» (٢/ ٢٩١) .
(٢) «الخُشُوعُ فِي الصَّلاَةِ» لابْنِ رَجَبٍ (١٦) .
(٣) « دِيْوَانُ ابْن درِيْد» (١)

أَيْ : الإِيْمَانُ الصَّادِقُ العَمِيْقُ الَّذِي لَا يُكَدِّرُهُ شَكٌّ فَهَذَا (دَايل كَارنْجي) مُؤَلِّفُ كِتَابِ «دَعْ القَلَقَ وَابْدَأْ الحَيَاةَ» ، ذَلِكَ الكِتَابُ الَّذِي تُرْجِمَ لِأَكْثَرِ لُغَاتِ العَالَمِ ، وَمَلأَ الدُّنْيَا وَشَغَلَ النَّاسَ يَمُوتُ مُؤَلِّفُهُ مُنْتَحِرًا ؛ لِأَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَهْتَدِ لِنُورِ الإِيْمَانِ .

وَهَذَا وَاحِدٌ مِنْ أَكْبَرِ خَمْسَةِ مُهَنْدِسِيْنَ فِي العَالَمِ ، صَمَّمَ جِسْرَ اسْتَنْبُولَ الأَوَّلَ الَّذِي تَعْبُرُهُ ثَلاثُ مَائَةِ أَلْفِ سَيَّارَةٍ فِي اليَوْمِ ، فِي أَثْنَاءِ افْتِتَاحِ الجِسْرِ أَلْقَىٰ المُهَنْدِسُ المُصَمِّمُ بِنَفْسِهِ فِي اليُوسُفُورِ ، وَنَزَلَ مَيْتًا ، ذَهَبُوا إِلَىٰ غُرْفَتِهِ فِي الفُنْدُقِ وَقَدْ كَتَبَ وَرَقَةً قَالَ فِيْهَا :

« قَدْ ذُقْتُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الحَيَاةِ فَلَمْ أَجِدْ لَهَا طَعْمًا ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَذُوْقَ طَعْمَ المَوْتِ !!! » .

فَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ نِعْمَةِ الإِسْلامِ وَالسُّنَّةِ ؛ فَالإِيْمَانُ تَجِدُ فِيْهِ السَّكِيْنَةَ ، تَجِدُ فِيْهِ الطُّمَأْنِيْنَةَ ، تَجِدُ فِيْهِ الرَّاحَةَ النَّفْسِيَّةَ وَالاسْتِقْرَارَ النَّفْسِيَّ .

قَالَ ابْنُ القَيِّم -رحمهُ الله- :

« مَا يُجَازِي بِهِ المُسِيْءُ مِنْ ضِيْقِ الصَّدْرِ وَقَسْوَةِ القَلْبِ وَتَشَتُّتِهِ وَظُلْمَتِهِ وَحَزَازَتِهِ ، وَغَمِّهِ وَهَمِّهِ وَحُزْنِهِ وَخَوْفِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَكَادُ مَنْ لَهُ أَدْنَىٰ حِسٍّ وَحَيَاةٍ يَرْتَابُ فِيْهِ ، بَلْ الغُمُومُ والهُمُومُ وَالأَحْزَانُ وَالضِّيْقُ عُقُوبَاتٌ عَاجِلَةٌ وَنَارٌ دُنْيَوِيَّةٌ وَجَهَنَّمُ حَاضِرَةٌ ،وَالإِقْبَالُ عَلَىٰ اللهِ –تَعَالَىٰ– وَالإِنَابَةُ إِلَيْهِ،

وَالرِّضَا بِهِ وَعَنْهُ وَامْتِلاءُ القَلْبِ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَاللَّهْجِ بِذِكْرِهِ والفَرَحِ والسُّرُورِ بِمَعْرِفَتِهِ ثَوَابٌ عَاجِلٌ وَجَنَّةٌ وَعَيْشٌ لاَ يَشْبَهُ لِعَيْشِ المُلُوكِ إِلَيْهِ البَتَّةَ .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الإِسْلامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ -قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ-: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لاَ يَدْخُلُ جَنَّةَ الآخِرَةِ .

وَقَالَ لِي مَرَّةً : مَا يَصْنَعُ أَعْدَائِي بِي ؟ ، أَنَا جَنَّتِي وَبُسْتَانِي فِي صَدْرِيْ ، إِنْ رُحْتُ فَهِيَ مَعِيْ لاَ تُفَارِقُنِي ، إِنَّ حَبْسِيْ خَلْوَةٌ ، وَقَتْلِيْ شَهَادَةٌ ، وَإِخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي سِيَاحَةٌ .

وَكَانَ يَقُولُ فِي مَحْبَسِهِ فِي القَلْعَةِ : لَوْ بَذَلْتُ مِلْءَ هَذِهِ القَاعَةِ ذَهَبًا مَا عَدَلَ عِنْدِي شُكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ .

أَوْ قَالَ مَا جَزَيْتُهُمْ عَلَىٰ مَا تَسَبَّبُوا لِي فِيهِ مِنَ الخَيْرِ وَنَحْوَ هَذَا .

وَكَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ وَهُوَ مَحْبُوسٌ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ مَا شَاءَ اللهُ ، وَقَالَ لِي مَرَّةً : المَحْبُوْسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ -تَعَالَىٰ- وَالمَأْسُوْرُ مَنْ أَسَرَهُ هَوَاهُ .

والحَقِيْقَةُ أَنَّ الكَافِرِيْنَ وَإِنْ اسْتَمْتَعُوا بِالدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ فِي كَرْبٍ وَضِيْقٍ لإِعْرَاضِهِمْ عَنِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-(١) .

قَالَ -جَلَّ جَلالُهُ-: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾

(١) « الوَابِلُ الصَّيِب مِنَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ » (٤٧-٤٨) .

[طه : ١٢٤] .ولهذا يُقدِمُ أَحدُهُمْ عَلَىٰ قَتْلِ نَفْسِهِ بِسَبَبِ هَذَا الضَّنْكِ كَما تَقَدَّمَ.

٤ـ التَّوْحِيْدُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ تَحْقِيْقُ التَّوْحِيْدِ ، فَالتَّوْحِيْدُ يَجْعَلُ الإِنْسَانَ يَلْجأُ إِلَىٰ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ وَيَنْفِي عَنْهُ كُلَّ خَوْفٍ أَوْ قَلَقٍ ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ-: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأَنْعَامُ : ٨٢] .

خَفْ اللهَ وَارْجُهُ لِكُلِّ عَظِيمَةٍ ... وَلَا تُطِعْ النَّفْسَ اللَّجُوجَ فَتَنْدَمَا

وَكُنْ بَيْنَ هَاتَيْنِ مِنْ الْخَوْفِ وَالرَّجَا ... وَأَبْشِرْ بِعَفْوِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مُسْلِمَا

٥ـ التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ تَحْقِيْقُ التَّوَكُّلَ عَلَىٰ اللهِ ، فَبالتَّوَكُّلِ يَشْعُرُ المُؤْمِنُ بِالأَمْنِ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَالسَّكِيْنَةِ إِذَا اضْطَرَبَ النَّاسُ وَاليَقِيْنِ إِذَا شَكَّ النَاسُ،وَالرِّضَا إِذَا سَخِطَ النَاسُ والأَمَلِ إِذَا يَئِسَ النَاسُ إِنَّهَا الحَالَةُ الَّتِي وَجدَهَا مُوسَى -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- حِيْنَ قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ٦٢] .

والحَالَةُ الَّتِي وَجَدَهَا إِبْرَاهِيْمُ الخَلِيْلُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- حِيْنَ أُلْقِي فِي النَّارِ .

فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَال: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

قَالَهَا إِبْرَاهِيْمُ الخَلِيْلُ حِيْنَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِيْنَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آلُ عِمْرَان: ١٧٣] (١).

قَالَ الشَّاعِرُ:

فَوَحَقِّهِ لأُسَلِّمَنَّ لأَمْرِهِ ... فِي كُلِّ نَازِلَةٍ وَضِيْقِ خِنَاقِ
مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيْمُ لَمَّا سَلَّمَا ... سَلِمَا مِنْ الإِغْرَاقِ وَالإِحْرَاقِ

وَقَالَ آخَرُ:

تَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فِي النَّائِبَاتِ ... وَلاَ تَبْغِ فِيهَا سِوَاهُ بَدِيْلاَ
وَثِقْ بَجَمِيْلِ صَنِيْعِ الإِلَهِ ... فَمَا عَوَّدَ اللهُ إِلَّا جَمِيْلاً (٢)

٦- الشُّعُورُ بِمَعِيَّةِ اللهِ:

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الشُّعُورُ بِمَعِيَّةِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحَدِيْد: ٤]، فَمَنْ اسْتَشْعَرَ أَنَّ اللهَ مَعَهُ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ وَرِعَايَتِهِ وَهُوَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بِذَاتِهِ مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ وَسَكَنَتْ نَفْسُهُ.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٤٥٦٣).
(٢) «أَحْسَنَ مَا سَمِعْتُ، لِلثَّعَالِبِيِّ» (١٠).

فَعَنْ أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الغَارِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ القَوْمِ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا قَالَ: «اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(١).

فَحِينَ ذَكَّرَهُ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَعِيَّةِ اللهِ فَقَالَ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التَّوْبَةُ: ٤٠]، زَالَ عَنْهُ الخَوْفُ، وَحَصَلَتْ لَهُ السَّكِينَةُ الطُّمَأْنِينَةُ.

٧- الثِّقَةُ بِوَعْدِ اللهِ:

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِينَةِ الثِّقَةُ بِوَعْدِ اللهِ وَنَصْرِهِ وَكِفَايَتِهِ.

قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ-: عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التَّوْبَةُ: ٤٠].

فِيهَا فَضِيلَةُ السَّكِينَةِ، وَأَنَّهَا مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ العَبْدِ فِي أَوْقَاتِ الشَّدَائِدِ، وَالمَخَاوِفِ الَّتِي تَطِيشُ بِهَا الأَفْئِدَةُ، وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَىٰ حَسَبِ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٧٠٧).

مَعْرِفَةِ العَبْدِ بِرَبِّهِ ، وَثِقَتِهِ بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ، وَبِحَسَبِ إِيمَانِهِ وَشَجَاعَتِهِ [١].

إِنَّـــهُ اللهُ سَـــلْـــوَةً وَضِـيَـــاءً   فِي سَـمَاءِ العُبَّادِ والـعَـابِـدَاتِ
عُـدْ إِلَىٰ ظِلِّهِ الظَّلِيْلِ الْتِمَاسًا   لِلنَّدَىٰ وَالرِّضَىٰ وَحُسْنِ الصَّلَاةِ
حَيْثُ يَكْسُوكَ حُلَّةً مِنْ حَنَانٍ   وَأَمَــانٍ فِي هَجْمَةِ العَادِيَاتِ[١]

٨ــ إِجْلَالُ اللهِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ إِجْلَالُ اللهِ وَتَعْظِيْمُهُ .

وَمِنْ الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيْمِ تُثْمِرُ المَهَابَةُ ، وَمِنْ المَهَابَةِ السَّكِيْنَةُ وَلاَ بُدَّ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

المَهَابَةُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ امْتِلَاءِ القَلْبِ بِعَظَمَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَإِجْلالِهِ ، فَإِذَا امْتَلَأَ القَلْبُ بِذَلِكَ حَلَّ فِيهِ النُّورُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِ السَّكِيْنَةُ وَأُلْبِسَ رِدَاءَ الهَيْبَةِ فَاكْتَسَىٰ وَجْهُهُ الحَلَاوَةَ وَالمَهَابَةَ فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ مَحَبَّةً وَمَهَابَةً ، فَحَنَّتْ إِلَيْهِ الْأَفْئِدَةُ ، وَقَرَّتْ بِهِ الْعُيُونُ ، وَأَنِسَتْ بِهِ الْقُلُوبُ ، فَكَلَامُهُ نُورٌ ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ ، وَعِلْمُهُ نُورٌ ، إِنْ سَكَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ ، وَإِنْ تَكَلَّمَ أَخَذَ بِالْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ » [٣].

---

(١) « تَفْسِيرُ ابْنِ سَعْدِيّ » (٣٣٧) .
(٢) « اللهُ أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ » الزُّهْرَانِي (٢٥) .
(٣) «الرَّوْحُ» (١/ ٢٣٥) .

قَالَ الشَّاعِرُ :

مَا لِلعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الكَرِيْمُ الوَاسِعُ [(١)]

٩ـ تَقْوَى اللهِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ تَقْوَىٰ اللهِ أَلَا تَرَىٰ أَنَّ المُسْلِمَ مَتَىٰ اتَّقَىٰ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ؛ فَإِنَّ التَّقْوَىٰ سَبَبٌ لِرِضَا اللهَ عَنِ العَبْدِ ، وَإِذَا رَضِيَ اللهُ عَنِ العَبْدِ جَاءَتْهُ السَّكِيْنَةُ تَطْلُبُهُ كَمَا يَطْلُبُ السَّيْلُ الحَدْوَرَةَ .

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ - تَعَالَىٰ - قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفَتْحُ : ١٨] .

فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ التَّقْوَىٰ الَّذِي هُوَ سَبَبُ نُزُولِ السَّكِيْنَةِ عَلَيْهِمْ.

« وَأَصْلُ التَّقْوَىٰ أَنْ يَجْعَلَ العَبْدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخَافُهُ وَيَحْذَرُهُ وِقَايَةً تَقِيهِ مِنْهُ، فَتَقْوَىٰ العَبْدِ لِرَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخْشَاهُ مِنْ رَبِّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَسَخَطِهِ وَعِقَابِهِ وِقَايَةً تَقِيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ فِعْلُ طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابُ مَعَاصِيْهِ » [(٢)] .

---

(١) « العِقْدُ المُفَصَّلُ » (١٤) .
(٢) «جَامِعُ العُلُومِ والحِكَمِ » (١٥٢) .

قَالَ أَبُو العَتَاهِيَةِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

وَإِذَا اتَّقَىٰ اللهَ امْرُؤٌ ، وَأَطَاعَهُ فَيَدَاهُ بَيْنَ مَكَارِمٍ وَمَعَالٍ
وَعَلَىٰ التَّقِيِّ إِذَا تَرَسَّخَ فِي التُّقَى تَاجَانِ تَاجُ سَكِينَةٍ وَجَلَالِ (١)

١٠- الصِّلَةُ بِاللهِ وَالالْتِجَاءُ إِلَيْهِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِينَةِ الصِّلَةُ بِاللهِ وَالالْتِجَاءُ إِلَيْهِ ؛ فَالصِّلَةُ بِاللهِ هِيَ الَّتِي تُفْرِغُ القَلْبَ لِلسَّكِينَةِ وَتُنْشِئُ فِي النَّفْسِ الطُّمَأْنِينَةَ ، وَتَجْعَلَ المَرْءَ مُطْمَئِنَّ البَالِ بَعِيدًا عَنِ الحَيْرَةِ وَالاضْطِرَابِ والقَلَقِ وَنَوَازِعِ النَّفْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْتَرِي الإِنْسَانَ حَالَ كَونِهِ بَعِيدًا عَنِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

إِلَيْكَ وَإِلَّا لاَ تُشَدُّ الرَكَائِبُ وَمِنْكَ وَإِلَّا فَالمُؤَمِّلُ خَائِبُ
وَفِيكَ وَإِلَّا فَالَلامُ مُضَيَّعٌ وَعَنْكَ وَإِلَّا فَالمُحَدِّثُ كَاذِبُ

١١- سُرْعَةُ الاسْتِجَابَةِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِينَةِ سُرْعَةُ الاسْتِجَابَةِ ؛ فَحِينَ أَنْزَلَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأَحْزَابُ : ٥٩] .

---

(١) «دِيْوَانُ أَبُو العَتَاهِيَةَ» (١٥٢) .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: « لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ خَرَجَ نِسَاءُ الأَنْصَارِ كَأَنَّ عَلَىٰ رُؤُوسِهِنَّ الغربَانُ مِنَ السَّكِينَةِ ، وَعَلَيْهِنَّ أَكْسِيَةٌ سُودٌ يَلْبَسْنَهَا »(١).

١٢ـ التَّأَسِّيْ بِالنَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ التَّأَسِّيْ بِالنَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فَقَدْ كَانَتْ حَرَكَاتُهُ وَسَكَنَاتُهُ وَأَخْلَاقُهُ انْعِكَاسًا لِطُمَأْنِيْنَةِ قَلْبِهِ وَسُكُونِ نَفْسِهِ، فَمَنْ أَرَادَ التَّحَلِّي بِالسَّكِيْنَةِ فَلْيَقْتَدِ بِهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ .

فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ جَاءَتْ السَّكِيْنَةُ تَطْلُبُهُ كَمَا يَطْلُبُ السَّيْلُ الحَدْوَرَةَ .

وَقَدْ امْتَنَّ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ- عَلَىٰ عَبْدِهِ وَخَلِيْلِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ ، وَجَمَعَ فِيْهِ أَشْتَاتَ الفَضَائِلِ بِتَمَامِهَا، وَأَبْعَدَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ، ثُمَّ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ ، وَنَوَّهَ بِذِكْرِ مَا يَتَحَلَّىٰ بِهِ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ ، فَقَالَ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القَلَمُ :٤] .

إِنْ فَاتَكُمْ أَنْ تَـرَوْهُ بِالعُيُونِ فَمَا   يَفُوتُكُم وَصْفُهُ هَذي شَمَائِلُهُ

(١) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدُ (٤١٠١)، وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-فِي «جِلْبَابِ المَرْأَةِ» (ص٨٣) .

مُكَمِّلُ الذَّاتِ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ   وَفِي صِفَاتٍ فَلَا تُحْصَىٰ فَضَائِلُهُ

١٣ـ قِيَامُ اللَّيْلِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِينَةِ قِيَامُ اللَّيْلِ ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا قِيَامُ اللَّيْلِ ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ ﴾ [المُزَّمِّلُ :٦] .

وَمَعْنَىٰ ﴿ نَاشِئَةَ ﴾ إِذَا كَانَ بَعْدَ نَوْم أَشَدُّ مُوافَقَةً وَمُصَادَفَةً لِلْخُشُوعِ وَالإِخْلَاصِ ، وَتَوَافُقِ القَلْبِ واللِّسَانِ » [١] .

فَالتَّعَرُضُ لِنَفَحَاتِ اللَّيْلِ وَاقْتِسَامُ الغَنِيْمَةِ مَعَ الْمُجْتَهِدِيْنَ لِمَنْ أَعْظَم وَسَائِلِ الْحُصُولِ عَلَىٰ السَّكِيْنَةِ ، وَمَنْ كَثُرَتْ صَلاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ .

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمُ كَابَدُوهُ   فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ
أَطَارَ الخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا   وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ
لَهُمْ تَحْتَ الظَّلَامِ وَهُمْ سُجُودٌ   أَنِيْنٌ مِنْهُ تَنْفَرِجُ الضُّلُوعُ
وَخُرْسٌ فِي النَّهَارِ لِطُولِ صَمْتٍ   عَلَيْهِمْ مِنْ سَكِيْنَتِهِمْ خُشُوعُ [٢]

---

(١) «التَّفْسِيرُ المُنِيرِ» لِلزُّحَيْلي (٢٩/ ١٩٤) .
(٢) «مجْمُوعَة القَصَائِدُ الزُّهْدِيَّات» (٢/ ٣٦) .

١٣ـ الحِكْمَةُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الحِكْمَةُ ، وَالحِكْمَةُ هِيَ مَا أَحَاطَ بِحَنَكَيِ الفَرَسِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا تَمْنَعُهُ مِنَ الجَرْيِ الشَّدِيْدِ ، وَتُذَلِّلُ الدَّابَّةَ لِرَاكِبِهَا حَتَّىٰ تَمْنَعُهُ مِنَ الجِمَاحِ [١]، وَمِنْهُ اشْتِقَاقُ الحِكْمَةِ ؛ لِأَنَّهَا تَمْنَعُ صَاحِبَهَا مِنْ أَخْلَاقِ الأَرَاذِلِ [٢] .

وَقِيْلَ : هِيَ فِعْلُ مَا يَنْبَغِي، عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي [٣].

وَقِيْلَ : هِيَ أَنْ تُعْطِي كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ ، وَلاَ تُعَدِّيَهُ حَدَّهُ ، وَلاَ تُعْجِّلَهُ عَنْ وَقْتِهِ ،وَلاَ تُؤَخِّرَهُ عَنْهُ .

وَقِيْلَ : هِيَ وَضَعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ [٤].

وَالحِكْمَةُ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ العَبْدِ ، قَالَ اللهُ –سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ–: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البَقَرَةُ :٢٦٩] .

أَيْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ يُعْطِي الحِكْمَةَ والعِلْمَ النَّافِعَ المُصَرِّفَ لِلإِرَادَةِ ، لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ

(١) الجِمَاحُ:مِنَ جَمَحَ الفَرَسُ إِذَا ذَهَبَ يَجْرِيْ جَرْيًا غَالِبًا وَاعْتَزَّ فَارِسُهُ فَغَلَبَهُ.(لِسَانُ العَرَبِ ٢).

(٢) « المِصْبَاحُ المُنِيْـرُ » لِلفَيُّومِي (١/ ١٤٥)

(٣) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْـنَ » (٢/ ٤٤٩) .

(٤) « مَنَازِلُ السَّائِرِيْنَ » للهَرَوِيِّ (٧٨) .

عِبَادِه ، فَيُمَيِّزُ بِه الحَقَائِقَ مِنَ الأَوْهَام ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الوَسَاوِس والإِلْهَام ، وَآلَةُ الحِكْمَةِ ، العَقْلُ المُسْتَقِلُّ بِالحِكَم فِي إِدْرَاكِ الأَشْيَاءِ بِأَدِلَّتِهَا، عَلَىٰ حَقِيْقَتِهَا،وَمَنْ أُوتِيَ ذَلِكَ عَرَفَ الفَرْقَ بَيْنَ وَعْدِ الرَّحْمَنِ وَوَعْدِ الشَّيْطَانِ، وَعَضَّ عَلَىٰ الأَوَّلِ بِالنَّوَاجِذِ وَطَرَحَ الثَّانِي وَرَاءَهُ ظِهْرِيًّا وَفَهِمَ الأُمُورَ»(١) .

وَمِنْ أَجْمَلِ مَا قِيْلَ فِي الحِكْمَةِ :

إِذَا مَا أَرَدْتَ النُّطْقَ فَانْطِقْ بِحِكْمَةٍ ... وَزِنْ قَبْلَ نُطْقٍ مَا تَقُولُ وَقَوِّمِ
فَـإِنْ لَمْ تَجِدْ طُـرْقَ المَقَالِ حَمِيْدَةً ... تَجَمَّلْ بِحُسْنِ الصَّمْتِ وَتَسْلَمِ
فَكَمْ صَامِتٌ يَلْقَىٰ المَحَامِدَ دَائِمًا ... وَكَمْ نَاطِقٍ يَجْنِي ثِمَارَ التَّنَدُّمِ (٢)

١٥ـ الصَّمْتُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الصَّمْتُ ، إِلَّا مِنَ الخَيْرِ ، فَمَنْ اعْتَادَ طُولَ الصَّمْتِ إِلَّا مِنْ الخَيْرِ ، اكْتَسَبَ السَّكِيْنَةَ وَلَا بُدَّ وَأَيُّ خَيْرٍ يُرْجَىٰ مِنْ كَثْرَةِ الكَلَامِ إِذَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ مَصْلَحَةٌ .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ **لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾** ﴾ [النِّسَاءُ :١١٤] .

---

(١) « تَفْسِيرُ المَرَاغِي » (٣/ ٤١-٤٢) .
(٢) « الكَتِيْبَةُ الكَامِنَةُ » لِلِسَانِ الدِّيْنِ بْنِ الخَطِيْبِ (٣٣) .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللّٰهُ-:

« يَقُولُ-تَعَالَىٰ-: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾ يَعْنِي: كَلَامَ النَّاسِ، ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أَيْ إِلَّا نَجْوَىٰ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ »(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ** »(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**عَلَيْكَ بِحُسْنِ الخُلُقِ وَطُولِ الصَّمْتِ** »(٣).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سُمُرَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ: « **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-طَوِيلُ الصَمْتِ، قَلِيلَ الضَّحِكِ** »(٤).

وَلِلّٰهِ دَرُّ القَائِلِ:

إِنْ كَانَ يُعْجِبُكَ السُّكُوتُ فَإِنَّهُ ... قَدْ كَانَ يُعْجِبُ قَبْلَكَ الأَخْيَارَا

---

(١) « تَفْسِيرُ ابْن كَثِيرٍ» (٧/ ٢١١).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٠١٨)، ومُسْلِمٌ (٤٧).

(٣) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَىَ فِي مُسْنَدِهِ (٣٢٩٨)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-فِي «صَحِيحِ الجَامِعِ » (٣٩٢٧).

(٤) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٥/ ٨٦-٨٨)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-فِي «صَحِيحِ الجَامِعِ » (٤٨٢٢).

وَلَئِنْ نَدِمْتَ عَلَىٰ سُكُوتِكَ مَرَّةً ... فَلَقَدْ نَدِمْتَ عَلَىٰ الكَلَامِ مِرَارًا
إِنَّ السُّكُوتَ سَلَامَةٌ وَلَرُبَّمَا ... زَرَعَ الكَلَامُ عَدَاوَةً وَضِرَارًا (١)

وَقَالَ الأَبْرَشُ :

مَا ذَلَّ ذُو صَمْتٍ وَمَا مِنْ مُكْثِرٍ ... إِلَّا يَزِلُّ وَمَا يُعَابُ صَمُوتُ
إِنْ كَانَ مَنْطِقُ نَاطِقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... فَالصَّمْتُ دُرٌّ زَانَهُ يَاقُوتُ (٢)

١٦ـ حُسْنُ السَّمْتِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ التَّحَلِّي بِحُسْنِ السَّمْتِ ، وَحُسْنِ السَّمْتِ هُوَ حُسْنُ المَظْهَرِ الخَارِجِيِّ لِلإِنْسَانِ مِنْ طَرِيْقَةِ الحَدِيْثِ والصَّمْتِ، والحَرَكَةِ والسُّكُونِ والدُّخُولِ والخُرُوجِ ، والسِّيْرَةِ العَمَلِيَّةِ فِي النَّاسِ بِحَيْثُ يَسْتَطِيْعُ مَنْ يَرَاهُ أَوْيَسْمَعُهُ أَنْ يَنْسِبَهُ لأَهْلِ الخَيْرِ والصَّلَاحِ والدِّيَانَةِ والفَلَاحِ» (٣) ، وَحَسْبُكَ أَنَّ السَّمْتَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **إِنَّ الهَدْيَ الصَّالِحَ وَ السَّمْتَ الصَّالِحَ وَالاقْتِصَادَ ؛ جُزْءٌ مِنْ**

(١) «حُسْنُ السَّمْتِ فِي الصَّمْتِ» (١١٥) .
(٢) «رَوْضَةُ العُقَلَاءِ» (٤٤) .
(٣) «نَضْـرَةُ النَّعِيْمِ» (٥/ ١٥٨٨) .

خَمْسَةٍ وَعِشْرِيْنَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » [١] .

وَعَامَّةُ السَّمْتِ فِي حُسْنِ المَظْهَرِ ، فَقَدْ قِيْلَ : المُرُوءَةُ الظَاهِرَةُ فِي الثِّيَابِ الطَّاهِرَةِ ، فَمَنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ فَلْيُوَسِّعْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، فَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي ثَوْبٍ دُوْنٍ [٢]، فَقَالَ : « **أَلَكَ مَالٌ ؟** » ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « **مِنْ أَيِّ المَالِ ؟** » ، قَالَ: قَدْ آتَانِي اللهُ مِنَ الإِبِلِ والغَنَمِ والخَيْلِ والرَّقِيْقِ ، قَالَ : « **فَإِذَا آتَاكَ اللهُ مَالاً فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ »** [٣] .

وَعَنْ جَابرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ قَالَ : أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَرَأَىٰ رَجُلاً شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ فَقَالَ : «**أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ ؟**» ، وَرَأَىٰ رَجُلاً آخرَ وَعَلَيْهِ ثِيَابًا وَسِخَةً فَقَالَ: « **أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ** » [٤].

وَلَقَدْ مَضَىٰ السَّلَفُ الأَبْرَارُ عَلَىٰ التَّحَلِّي بِالسَّمْتِ الحَسَنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ سِيَّمَا فِي المَظْهَرِ .

---

(١) (حَسَنٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدُ (٤٧٧٦)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ » (١٩٩٢) .

(٢) ثَوْب دُوْن : أَيْ قَدِيْم أَوْ بَال .

(٣) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدُ (٤٠٦٣) ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «غَايَةِ المَرَامِ» (١/ ٦٣) .

(٤) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدُ (٤٠٦٢)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «الصَّحِيْحَةِ» (٤٩٣) .

قَالَ المَيْمُونِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَنْظَفَ ثَوْبًا ، وَلاَ أَشَدَّ تَعَاهُدًا لِنَفْسِهِ فِي شَارِبِهِ وَشَعْرِ رَأْسِهِ وَشَعْرِ بَدَنِهِ ،، وَلاَ أَنْقَىٰ ثَوْبًا وَأَشَدَّ بَيَاضًا مِنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ -رَحِمَهُ اللهُ-» (١) .

مَضَىٰ السَّلَفُ الأَبْرَارُ يَعْبَقُ ذِكْرُهُمْ ... فَسِيْرُوا كَمَا سَارُوا عَلَىٰ البِرِّ وَاصْنَعُوا(٢)

١٧ـ التَّوَاضُعُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ التَّوَاضُعُ ، فالتَّوَاضُعُ قَرِيْنُ السَّكِيْنَةِ والخُشُوعِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَوَاضَعَ القَلْبُ خَشَعَتْ الجَوَارِحُ وَسَكَنَتْ .

فالتَّوَاضُعُ يُعْتَبَرُ بالأَخْلَاقِ وَالأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ (٣) .

وَقَدْ رَغَّبَ الإِسْلَامُ فِي التَّوَاضُعِ وَحَثَّ عَلَيْهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : **« مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ -تَعَالَىٰ- إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ »** (٤) .

---

(١) « الأَدَابُ الشَّرْعِيَّةُ» لابْنِ مِفْلِحٍ (٢/ ١٢) .

(٢) اقْتَصَرتُ هُنَا عَلَىٰ ذِكْرِ المَظْهَرِ الخَارِجِي،وَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ السَّمْتِ الحَسَنِ بِشَكْلٍ عَامٍّ فَعَلَيْهِ بكِتَابِي«التَّاجُ المَفْقُودُ» وَهُوَ مَطْبُوعٌ مُتَدَاوَلٌ،مِنْ مَطْبُوعَاتِ دَارِ الإِيْمَانِ-الإِسْكَنْدَرِيَّة.

(٣) «الفُرُوقُ اللُّغَوِيَّةِ »لِأَبِي هِلَالِ العَسْكَرِيِّ (١٢٢) .

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨٨) .

قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

«**وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ**» ، فِيهِ وَجْهَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَمْنَحُهُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا جَزَاءً عَلَىٰ تَوَاضُعِهِ لَهُ ، وَأَنَّ تَوَاضُعَهُ يُثْبِتُ لَهُ فِي القُلُوبِ مَحَبَّةً وَمَكَانَةً وَعِزَّةً .

وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ثَوَابُهُ فِي الآخِرَةِ عَلَىٰ تَوَاضُعِهِ » (١).

وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ مُوسَى بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لَاحَ لِنَاظِرٍ ... عَلَىٰ صَفَحَاتِ المَاءِ وَهُوَ رَفِيعُ
وَلَا تَكُ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ ... إِلَىٰ طَبَقَاتِ الجَوِّ وَهُوَ وَضِيعُ (٢)

١٨ـ التَّوَاضُعُ فِي المَشْيِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِينَةِ التَّوَاضُعُ فِي المَشْيِ ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفُرْقَانُ : ٦٣] .

قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

« فَذَكَرَ أَنَّ صِفَاتِهِمْ أَكْمَلَ الصِّفَاتِ وَنَعُوتَهُمْ أَفْضَلُ النُّعُوتِ ، فَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أَيْ : سَاكِنِينَ مُتَوَاضِعِينَ لِلَّهِ وَالخَلْقِ ، فَهَذَا

(١) « إِكْمَالُ المُعَلِّم شَرْح صَحِيح مُسْلِم » (٨/ ٥٩) .
(٢) « أَعْيَانُ العَصْرِ وَأَعْوَانُ النَّصْرِ » لِلصَّفدِي (٥/ ٤٧٩) .

وَصْفٌ لَهُمْ بالوَقَار وَالسَّكِيْنَةِ ، وَالتَّوَاضُع لِلهِ وَلِعبَادِهِ ، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴾ أَيْ خَطَابَ جَهْلٍ بَدَلِيْلِ إِضَافَة الفِعْلِ وَإِسْنَادِهِ لِهَذَا الوَصْفِ.

﴿ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ أَيْ : خَاطَبُوهُمْ خِطَابًا يَسْلَمُونَ فِيْهِ مِنَ الإِثْمِ وَيَسْلَمُونَ مِنْ مُقَابَلَةِ الجَاهِلِ بِجَهْلِهِ » (١).

قَالَ الكَريزي :

وَلاَ تَمْشِ فَوْقَ الأَرْضِ إِلَّا تَوَاضُعًا فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُ مِنْكَ أَرْفَعُ
فَإِنْ كُنْتَ فِي عِزٍ وَحَرزٍ وَمِنْعَةٍ فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُ مِنْكَ أَمْنَعُ (٣)

١٩ــ الحَيَاءُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الحَيَاءُ ، وَهُوَ « تَغَيُّرٌ وَانْكِسَارٌ يَعْتَرِيْ الإِنْسَانَ مِنْ خَوْفِ مَا يُعَابُ بِهِ وَيُذَمُّ وَمَحَلُّهُ الوَجْهُ » (٣).

وَجَمِيْلٌ أَنْ يَرْتَدِيَ المَرْءُ ثَوْبَ الحَيَاءِ فَهُوَ خَيْرُ لِبَاسٍ ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأَعْرَافُ :٢٦] .

---

(١) « تَفْسِيرُ ابْن سَعْدِيّ » (٥٨٦) .
(٢) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (٤١٥) .
(٣) «التِّبْيَانُ فِي تَفْسِيْرُ غَرِيْب القُرْآن » لابْنِ الهَائِمِ ، ص (٦١) .

فُسِّرَ لِبَاسُ التَّقْوَىٰ بِأَنَّهُ الحَيَاءُ كَمَا رُوِيَ عَنْ الحَسَنِ [١]،وَمَعْبَدِ الجُهَنِيُّ [٢].

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودِ البَدْرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُوْلَىٰ : إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ** » [٣] .

قَالَ الخَطَابِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« قَالَ الشَّيْخُ : مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : «**النُّبُوَّةِ الأَوْلَىٰ**» أَنَّ الحَيَاءَ لَمْ يَزَلْ أَمْرُهُ ثَابِتًا، وَاسْتِعْمَالُهُ وَاجِبًا مُنْذُ زَمَانِ النُّبُوَّةِ الأَوْلَىٰ ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ نُدِبَ إِلَىٰ الحَيَاءِ وَبُعِثَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُنْسَخْ فِيمَا نُسِخَ مِنْ شَرَائِعِهِمْ ، وَلَمْ يُبَدَّلْ فِيمَا بُدِّلَ مِنْهَا » [٤].

قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا وَاللهِ مَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ [٥]

وَمَنْ ارْتَدَىٰ ثَوْبَ الحَيَاءِ سَكَنَتْ نَفْسُهُ وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ وَاسْتَنَارَ وَجْهُهُ

(١) « تَفْسِيرُ الآلُوسِي » (٤/ ٣٤٤) .
(٢) « تَفْسِيرُ الثَّعَالِبِي » (٣/ ١٩) .
(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦١٢٠) .
(٤) « مَعَالِمُ السُّنَنِ» لِلخَطَّابِي (٤/ ١٠٩) .
(٥) « آدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّيْن » (٢/ ١٠٣) .

وَصَارَ مَحْبُوبًا مِنْ كُلِّ مَنْ رَآهُ .

وَجْـهٌ عَلَيْهِ مِنْ الحَيَاءِ سَكِيْنَةٌ وَمَحَبَّةٌ تَجْـرِيْ مَعَ الأَنْـفَـاسِ (١)

٢٠ـ الحِلْمُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الحِلْمُ ، وَالحِلْمُ لُغَةً : خِلَافُ الطَّيْشِ، وَاصْطِلَاحًا: ضَبْطُ النَّفْسِ والطَّبْعِ عِنْدَ هَيَجَانِ الغَضَبِ (٢).

وَفَضَائِلُ الحِلْم كَثِيْرَةٌ جَمَّةٌ غَزِيْرَةٌ ، وَيَكْفِي أَنَّ اللهَ ، -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ- وَصَفَ نَفْسَهُ بِالحِلْم وَسَمَّىٰ نَفْسَهُ الحَلِيْمُ .

وَالأَدِلَّةُ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ تَدْعُو إِلَىٰ التَّحَلِّي بِهَذَا الخُلُقِ النَّبِيْلِ ؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ عَظِيْمٌ مِنْ أَسْبَابِ السَّكِيْنَةِ وَالوَقَارِ .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فُصِّلَت:٣٤-٣٥].

قَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

(١) « دِيْوَانُ ابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ » (١٤٥) .
(٢) « انْظُرْ: « مَقَايِيسَ اللُّغَةِ » (٢/ ٩٣) ، و«مُفْرَدَاتِ أَلْفَاظِ القُرْآنِ » لِلرَّاغِبِ (٢٥٣) .

أَيْ : إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ ، قَادَتْهُ تلك الحَسَنَةُ إِلَيْهِ إِلَىٰ مُصافاتك وَمَحَبَّتك ، والحُنُوِّ عليك ، حَتَّىٰ يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، أَيْ قَرِيبٌ إِلَيْكَ مِن الشَّفَقَةِ عَلَيْكَ وَالإِحْسَانِ إِلَيْكَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أَيْ : وَمَا يَقْبَلُ هَـٰذِهِ الوَصِيَّةَ إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَشُقُّ عَلَىٰ النُّفُوسِ ، ﴿ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : ذُو نَسَبٍ وَأَمْرٍ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ » (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **لَيْسَ الشَّدِيْدُ بِالصُّرْعَةِ ، وَإِنَّمَا الشَّدِيْدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ** » (٢) .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ -رَحِمَهُ اللهُ- :

« فِي هَذَا الحَدِيْثِ مِنْ الفِقْهِ : فَضْلُ الحِلْمِ ، وَفِيْهِ دَلِيْلٌ عَلَىٰ أَنَّ الحِلْمَ : كِتْمَانُ الغَيْظِ ، وَأَنَّ العَاقِلَ مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ ؛ لِأَنَّ العَقْلَ -فِي اللُّغَةِ- ضَبْطُ الشَّيْءِ وَحَبْسُهُ مِنْهُ » (٣).

(١) « تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ » (٧/ ١٨١) .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦١١٤) ، ومُسْلِمٌ (٢٦٠٩) .
(٣) « التَّمْهِيْد» (٦/ ٣٢٢) .

وَمِنْ جَمِيلِ مَا قِيلَ فِي الحِلْمِ :

حَلِيْمٌ إِذَا مَا الحِلْمُ زَيَّـنَ أَهْلَهُ   مَعَ الحِلْمِ فِي عَيْنِ العَدُوِّ مَهِيْبُ
إِذَا مَا تَـرَاءَاهُ الرِّجَالُ تَحَفَّظُوا   فَلَمْ تَنْطِقِ العَوْرَاءَ وَهُوَ قَرِيْبُ (١)

٢١ـ الأَنَاةُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ لُزُوْمُ الأَنَاةِ ، فِيْمَا نَأْتِي وَنَذَرُ .

وَالأَنَاةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الأَنَاةُ ، هِيَ التَّصَرُّفُ الحَكِيْمُ بَيْنَ العَجَلَةِ وَالتَّبَطُّؤِ؛ لِأَنَّ العَجَلَةَ وَعَدَمَ التَّأَنِّي فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ خِلَافُ السَّكِيْنَةِ وَالوَقَارِ ، وَيُوَدِّي إِلَىٰ كَثِيْرٍ مِنَ الأَضْرَارِ والمَفَاسِدِ ، وَعَدَمِ تَحْصِيْلِنَا لِمَا نُرِيْدُ مِنْ خَيْرٍ، لِذَا قَالَ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [الحُجُرَات:٦] .

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- :

« قَرَأَ الجُمْهُورُ (فَتَبَيَّنُوا)، مِنَ التَّبَيُّنِ ، وَهُوَ التَّأَمُّلُ،وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالكَسَائِيُّ : « فَتَثَبَّتُوا» مِنَ التَّثَبُّتِ ، والمُرَادُ مِنَ التَّبَيُّنِ التَّعَرُّفُ والتَّفَحُّصُ ، وَمِنَ التَّثَبُّتِ: الأَنَاةُ وَعَدَمُ العَجَلَةِ ، وَالتَّبَصُّرِ فِي الأَمْرِ الوَاقِعِ والخَبَرِ الوَارِدِ ، حَتَّىٰ يَتَّضِحَ

---

(١) « أَمَالِي القَالِـي» (٢/ ١٤٩) .

وَيَظْهَرَ »⁽¹⁾.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **التَّأَنِّي مِنَ اللهِ ، والعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ** »⁽²⁾.

قَالَ المَنَاوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- :

« الأَنَاةُ بِوَزْنِ قَنَاةٍ : أَيْ التَّأَنِّي (مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ) ، أَيْ مِمَّا يَرْضَاهُ وَيُثِيبُ عَلَيْهِ (والعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ) أَيْ هُوَ الحَامِلُ عَلَيْهَا بِوَسْوَسَتِهِ؛ لِأَنَّ العَجَلَةَ تَمْنَعُ مِنَ التَّثَبُّتِ وَالنَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ »⁽³⁾.

وَعَنْ زَارِعِ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ القَيْسِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَكَانَ فِي وَفْدِ عَبْدِ القَيْسِ قَالَ : لَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ فَجَعَلْنَا نَتَبَادَرُ مِنْ رَوَاحِلِنَا فَنُقَبِّلُ يَدَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَرِجْلَهُ ، قَالَ : وانْتَظَرَ المُنْذِرُ الأَشَجُّ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَيْبَتَهُ فَلَبِسَ ثَوْبَيْهِ ثُمَّ أَتَىٰ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ لَهُ : « **إِنَّ فِيْكَ خِلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ ؛ الحِلْمُ والأَنَاةُ** » .

قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ : أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا ؟، قَالَ: « **بَلْ اللهُ جَبَلَكَ**

---

(١) «فَتْحُ القَدِيْر» (٥/ ٧١) .

(٢) (حَسَنٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٠١٢)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ» (٣٠١١) .

(٣) «فَيْضُ القَدِيْر» (٣/ ١٨٤) .

عَلَيْهِمَا » ، قَالَ : الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَىٰ خِلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولِهِ» (١).

فَتَأَمَّلْ إِلَىٰ السَّكِيْنَةِ وَالتَّأَنِّي فَلَمْ يَعْجَلْ حَتَّىٰ ذَهَبَ إِلَىٰ عَيْبَتُهُ ، وَهِيَ الوِعَاءُ الَّذِي فِيْهِ الثِّيَابُ ، فَلَبَسَ ثِيَابَهُ ، وَجَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَعْلُوهُ السَّكِيْنَةُ وَالوَقَارُ ، فَذَكَرَ لَهُ مَا جَبَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ .

قَالَ النَّابِغَةُ :

الرِّفْقُ يُمْنٌ والأَنَاةُ سَعَادَةٌ فَتَأَنَّ فِي أَمْرٍ تُلَاقِ نَجَاحا (٢)

وَقَالَ القَطَامِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- :

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ (٣)

٢٢ـ التَّأَنِّي فِي نَقْلِ الأَخْبَارِ المُزْعِجَةِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ التَّأَنِّي فِي نَقْلِ الأَخْبَارِ المُزْعِجَةِ وَتَلَقِّيْهَا؛ فَالَّذِي يُلَاحَظُ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ لاَ يُرَاعَىٰ هَذَا الحَقَّ ، وَهُوَ خِلَافُ

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدُ (٥٢٢٥)،وَأَحْمَدُ (٢٠٦/٤) ، وَأَخرَجَ الشَّطْرَ الأَوَّلُ مُسْلِمٌ (١٧)، وَالتِّرمِذِيُّ (٢٠١١)، عَنِ ابْن عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، قَالَ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «قَوْلُ زَارِعٍ :(لَمَّا قَدِمْنَا المَدِيْنَةَ ... وَرَحْلَهُ) حَسَنٌ دُوْنَ ذِكْرِ الرِّجْلَيْنِ ، وَقَوْلُهُ : «وانْتَظَرَ المُنْذِرُ الأَشَجُّ حَتَّىٰ أَتَىٰ ...وَرَسُولُهُ» صَحِيْحٌ . قَوْلُ زَارِعٍ : « لَمَّا قَدِمْنَا المَدِيْنَةَ ... وَرَحْلَهُ »، المِشْكَاةُ (٤٦٨٨) ، التَّحْقِيْقُ الثَّانِي قَوْلُهُ : «وانْتَظَرَ المُنْذِرُ الأَشَجُّ حَتَّىٰ أَتَىٰ ... وَرَسُولُهُ» ابْنُ مَاجَهْ (٤١٨٨) ، السُّنَّةُ لابْنِ أَبِي عَاصِمٍ (١٩٠) .

(٢) « اللَّطَائِفُ وَالظَّرَائِف» (١٢٢) .

(٣) « اللَّطَائِفُ وَالظَّرَائِف» (١٢٢) .

السَّكِيْنَةِ .

وَالأَخْبَارُ المُزْعِجَةُ كَثِيْرَةٌ كَمَوْتِ عَزِيْزٍ أَوْ خَسَارَةٍ مَالِيَّةٍ ، أَوْ حَادِثٍ أَوْ غَرَقٍ أَوسُقُوطٍ مِنْ حَالِقٍ ، وَهَلُمَّ جرًّا .

لَكِنَّهَا تَحْتَاجُ عِنْدَ نَقْلِهَا إِلَىٰ أَرْبَابِهَا لِمُقَدِّمَاتٍ مُمَهِّدَاتٍ ، فَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَتَحَمَّلُ وَاقِعَ الصَّدْمَةِ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَهُ بِالحَقِيْقَةِ عَارِيَةً وَذَلِكَ قَلِيْلٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَحَمَّلُ هَوْلَ الصَّدْمَةِ وَذَلِكَ فِي النَّاسِ كَثِيْرٌ فَكَانَتْ المُقَدِّمَاتُ المُمَهِّدَاتُ أَحْمَدَ وَأَسْلَمَ عَاقِبَةً .

قَالَ الشَّاعِرُ يَمْدَحُ رَجُلاً اعْتَادَ التَّأَنِّي فِي نَقْلِ الأَخْبَارِ المُزْعِجَةِ :

جَمْعُ العُقُولِ عَلَىٰ الصَّوَابِ بِحُجَّةٍ   فِيْهَا احْتِمَالُ الرَّيْبِ لاَ يَتَطَرَّقُ
فَمِنَ السَّكِيْنَةِ والوَقَارِ سُكُوتُهُ   وَلَهُ المَقَالُ الفَصْلُ سَاعَةَ يَنْطِقُ (١)

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَاد -حَفِظَهُ اللهُ- :

وَإِذَا نَقَلْتَ إِلَىٰ أَخِيْكَ مُصِيْبَةً   مُتَبَيِّنًا لِلصِّدْقِ وَالتَّأْكِيْدِ
فَارْفِقْ بِهِ وَابْدَأْ بِهَا مُتَدَرِّجًا   مِنْ غَيْرِ تَهْوِيْلٍ وَلَا تَزْيِيْدِ
فَأَشَدُّ مِنْ وَقْعِ المُصِيْبَةِ نَقْلُهَا   مِنْ غَيْرِ تَوْطِئَةٍ وَلاَ تَمْهِيْدِ

---

(١) « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرُ العَرَبِـيُّ » (٢٤/ ٢٠) .

٢٣ـ الصَّبْرُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الصَّبْرُ ؛ وَهُوَ « **حَبْسُ النَّفْسِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ ، وَحَبْسُهَا عَلَىٰ فَرَائِضِهِ ، وَحَبْسُهَا عَنْ التَّسَخُّطِ والشِّكَايَةِ لِأَقْدَارِهِ** »(١).

ذَكَرَهُ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ فِي تِسْعِيْنَ مَوْضِعًا(٢).

وَالقَاسِمُ المُشْتَرَكُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّكِيْنَةِ هُوَ أَنَّ الصَّبْرَ ضَبْطُ النَّفْسِ عَنِ الضَّجَرِ والجَزَعِ عِنْدَ حُلُولِ المَصَائِبِ ، وَعَنِ الخَوْفِ لَدَىٰ مُثِيْرَاتِ الخَوْفِ وَعَنِ الغَضَبِ والطَّيْشِ لَدَىٰ مُثِيْرَاتِ عَوَامِلِ الغَضَبِ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا فِي سُكُونِ النَّفْسِ وَطُمَأْنِيْنَةِ القَلْبِ وَرَاحَةِ البَالِ .

وَمِنْ جَمِيْلِ مَا قِيْلَ فِي الصَّبْرِ :

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا تَخْتَشِي أَوْ تَرْتَجِي ... تَظْفَرْ بِحُسْنِ سَكِيْنَةٍ وَنَجَاحِ
أَوَمَا تَرَىٰ السَّارِيْنَ لَمَّا صَابَرُوا ... ظُلْمَ السُّرَىٰ أَفْضَوا إِلَىٰ الإِصْبَاحِ(٣)

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَادِ -حَفِظَهُ اللهُ- :

كُنْ صَابِرًا عِنْدَ المَصَائِبِ وَاحْتَسِبْ ... أَجْرًا ، وَلَا تَسْخَطْ عَلَىٰ المَعْبُودِ
فَإِذَا صَبَرْتَ مَضَىٰ وَنَالَكَ أَجْرُهُ ... إِذَا سَخِطْتَ فَلَيْسَ بِالمَرْدُودِ

---

(١) « رِسَالَةُ ابْنِ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- لِأَحَدِ إِخْوَانِهِ » (١٨) .
(٢) « عُدَّةُ الصَّابِرِيْنَ » (١١٣) .
(٣) « دِيْوَانُ أُسَامَةَ بْنِ مُنْقِذ » (٤٨٤) .

٢٤ـ الرِّضَا :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الرِّضَا عَنِ اللهِ وَبِهِ وَالتَّسْلِيْمُ لِأَمْرِهِ »[١].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« إِنَّ الرِّضَا يُنْزِلُ عَلَيْهِ السَّكِيْنَةَ الَّتِي لاَ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا ، وَمَتَىٰ نَزَلَتْ عَلَيْهِ السَّكِيْنَةُ اسْتَقَامَ ، وَصَلُحَتْ أَحْوَالُهُ ، وَصَلُحَ بَالُهُ .

وَالسُّخْطُ يُبْعِدُهُ مِنْهَا بِحَسَبِ قِلَّتِهِ وَكَثْرَتِهِ ، وَإِذَا تَرَحَّلَتْ عَنْهُ السَّكِيْنَةُ تَرَحَّلَ عَنْهُ السُّرُورُ وَالأَمْنُ وَالدَّعَةُ وَالرَّاحَةُ ، وَطِيْبُ العَيْشِ ، فَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ ، تَنَزُّلُ السَّكِيْنَةِ عَلَيْهِ وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِهَا الرِّضَا عَنْهُ فِي جَمِيْعِ الحَالاَتِ »[٢].

إِذَا أَنَا لَمْ أَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ كُلَّ مَا ... تَكَرَّهْتُ مِنْهُ طَالَ عَتْبِي عَلَىٰ الدَّهْرِ
إِلَىٰ اللهِ كُلُّ الأَمْرِ فِي الخَلْقِ كُلِّهِمْ ... وَلَيْسَ إِلَىٰ المَخْلُوقِ شَيْءٍ مِنَ الأَمْرِ
تَعَدَّدْتُ مُسَلَّمًا الضُّرِّ حَتَّىٰ أَلِفْتُهُ ... وَأَسْلَمَنِي طُولُ البَلَاءِ إِلَىٰ الصَّبْرِ
وَوَسَّعَ صَدْرِي لِلأَذَىٰ الأُنْسُ بِالأَذَى ... وَإِنْ كُنْتُ -أَحْيَانًا- يَضِيْقُ بِهِ صَدْرِي
وَصَيَّرَنِي يَأْسِيْ مِنَ النَّاسِ رَاجِيًا ... لِسُرْعَةِ لُطْفِ اللهِ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي

---

(١) انْظُرْ غَيْرَ مَأْمُورٍ كِتَابِي «جَنَّةُ الرِّضَا والتَّسْلِيْمِ لِمَا قَدَّرَ اللهُ وَقَضَى » .
(٢) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (٢/ ٢٠١) .

٢٥ـ الرِّفْقُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الرِّفْقُ وَالتَّيْسِيْرُ عَلَىٰ النَّاسِ وَعَدَمُ التَّنْفِيْرِ.

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، واسْكُنُوا ولا تَنْفِرُوا**»[(١)].

فَقَوْلُهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**واسْكُنُوا**» أَيْ اتَّخِذُوا السَّكِيْنَةُ وَهِيَ الطُّمَأْنِينَةُ.

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَاد -حَفِظَهُ اللّه-:

رَفِيْقٌ يَغَارُ الرِّفْقُ مِنْهُ لِرِفْقِهِ ... إِذَا هَمَّ شَيْئًا أَوْ تَكَلَّمَ أَوْ فَعَلْ
يَكَادُ يَعُدُّ النَّاسُ أَلْفَاظَ يَوْمِهِ ... لِقِلَّتِهَا، لَكِنْ أَلَذُّ مِنَ العَسَلْ

٢٦ـ الدَّفْعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الدَّفْعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ وَذَلِكَ إِذَا بَلَغَكَ عَنْ أَخٍ مِنْ إِخْوَانِكَ إِسَاءَةٌ أَوْ كَلِمَةٌ عَوْرَاءُ فَإِنَّ النَّاسَ لاَ يَزَالُونَ هَكَذَا:

هَجَوْتُ زُهَيْرًا ثُمَّ إِنِّي مَدَحْتُهُ ... وَمَا زَالَتْ الأَشْرَافُ تُهْجَىٰ وَتُمْدَحُ

وَالدَّفْعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ أَدَبٌ رَبَّانِيٌّ، أَدَّبَنَا اللهُ بِهِ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦١٢٥)، ومُسْلِمٌ (١٧٤٣).

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤].

قَالَ ابْنُ عُثَيْمِينَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

سُبْحَانَ اللهِ! إِنْسَانٌ بَيْنُكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ أَسَاءَ إِلَيْكَ، ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ فَإِذَا دَفَعْتَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَفَوْرًا يَأْتِيْكَ الثَّوَابُ والجَزَاءُ ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أَيْ قَرِيْبٌ صَدِيْقٌ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الصَّدَاقَةِ والقُرْب، وَالَّذِي يَقُولُ هُوَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- مُقَلِّبُ القُلُوب، مَا مِنْ قَلْب مِنْ قُلُوبِ بَنِي آدَمَ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ -عَزَّ وَجَلَّ- يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، فَهَذَا الَّذِي كَانَ عَدُوًّا لَكَ وَدَافَعْتَهُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِنَّهُ يَنْقَلِبُ بَدَلَ العَدَاوَةِ صَدَاقَةً ﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (١).

فَإِذَا تَخَلَّقْتَ بِهَذَا السُّلُوكِ القَوِيْم، الَّذِي أَدَّبَكَ بِهِ رَبُّكَ -جَلَّ جَلَالُهُ- اطْمَأَنَّتْ نَفْسُكَ وَعِشْتَ فِي سَكِيْنَةٍ وَرَاحَةِ بَالٍ لِمَا لَهُ مِنْ نَتَائِجَ عَظِيْمَةٍ.

٢٧- الإِعْرَاضُ عَنِ الجَاهِلِيْنَ:

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الإِعْرَاضُ عَنِ الجَاهِلِيْنَ؛ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الجَاهِلِيْنَ حَمَىٰ عِرْضَهُ وَأَرَاحَ نَفْسَهُ وَسَلِمَ مِنْ سَمَاعِ مَا يُؤْذِيْهِ.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

---

(١) «شَرْحُ رِيَاضِ الصَّالِحِيْنَ» (١/ ٢٧٨).

ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأَعْرَافُ :١٩٩] .

فَبالإعْرَاضِ عَنِ الجَاهِلِيْنَ يَحْفَظُ الرَّجُلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ عِزَّتَهَا وَسَكِيْنَتَهَا وَوَقَارَهَا ، فَيَنْأَىٰ بِهَا عَنْ مُجَارَاةِ السُّفَهَاءِ وَيَحْمِيْهَا عَنْ مُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا وَيَرْفَعُهَا عَنِ السُّقُوطِ فِي وَحْلِ المُهَاتَرَاتِ والأَقْذَاعِ »(١) .

إِنِّي لَأُعْرِضُ عَنْ أَشْيَاءَ أَسْمَعُهَا ... حَتَّىٰ يَقُولَ رِجَالٌ إِنَّ بِي حُمُقَا
أَخْشَىٰ جَوَابَ سَفِيْهٍ لَا حَيَاءَ لَهُ ... فَسْلٍ وَظَنَّ أُنَاسٍ أَنَّهُ صَدَقَا (٢)

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَاد -حَفِظَهُ اللّٰهُ-:

كُنْ عَنِ الجَاهِلِ أَعْمَى ... أَبْكَمًا عَيًّا أَصَمَّا
قَدْ يَحُطُّ الرَّدُّ قَدْرًا ... أَوْ يُسِيءُ النَّاسُ فَهْمًا

٢٨ـ المُدَارَاةُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ المُدَارَاةُ ؛ وَالمُدَارَاةُ خُلُقٌ فِي الإِنْسَانِ مُكْتَسَبٌ لِيُصْبِحَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ سُلُوكًا ، يُقَوِّمُ مِنْ خِلَالِهِ فَتَعْظُمَ عِلَاقَاتِهِ الاجْتِمَاعِيَّةِ مَعَ الآخَرِيْنَ ، وَكُلَّمَا كَانَ الإِنْسَانُ ذَا عَلَامَةٍ وَاسِعَةٍ مَعَ غَيْرِهِ، وَتَعَدَّدَتْ مَسْؤُلِيَّاتُهُ احْتَاجَ إِلَىٰ نَوْعٍ مِنَ المُدَارَاةِ الَّتِي مِنْ أَبْرَزِهَا اللِّيْنُ (٣) .

(١) «سُوءُ الخُلُقِ» لِلحَمْد (١٠٥) .
(٢) «عُيُون الأَخْبَار» (١/ ٢٨٤) .
(٣) المُدَارَاةُ وَأَثَرُهَا فِي العِلَاقَاتِ العَامَّة» د. مُحَمَّد آلُ سُعُودٍ (٣٣٤) .

فَعَنْ أُمِّ المُؤمِنِيْنَ عَائِشَةُ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-قَالَتْ : أَنَّ رَجُلاً اسْتَأْذَنَ عَلَىٰ النَّبِيِّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فَلَمَّا رَآهُ قَالَ : « **بِئْسَ أَخُو العَشِيْرَةِ ، وَبِئْسَ ابْنُ العَشِيْرَةِ** » ، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: يَا رَسُولَ اللهِ؛ حِيْنَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا ، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **يَا عَائِشَةُ مَتَىٰ عَهِدْتِني فَحَّاشًا؟! ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ ؛ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ** » (١) .

نَقَلَ ابْنُ حَجَرٍ عَنْ القُرْطُبِيِّ -رَحِمَهُمَا اللهُ-قَوْلَهُ :

« فِي الحَدِيْثِ جَوَازُ غِيْبَةِ المُعْلِنِ بِالفِسْقِ أَوْ الفُحْشِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الجَوْرِ فِي الحُكْمِ وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ البِدْعَةِ مَعَ جَوَازِ مُدَارَاتِهِمْ اتِّقَاءَ شَرِّهِمْ مَا لَمْ يُؤَدِّ ذَلِكَ إِلَىٰ المُدَاهَنَةِ فِي دِيْنِ اللهِ -تَعَالَىٰ-ثُمَّ قَالَ تَبَعًا لِعِيَاضٍ : وَالفَرْقُ بَيْنَ المُدَارَاةِ وَالمُدَاهَنَةِ ، أَنَّ المُدَارَاةَ بَذْلُ الدُّنْيَا لِصَلاحِ الدُّنْيَا أَوْ الدِّيْنِ أَوْ هُمَا مَعًا ، وَهِيَ مُبَاحَةٌ وَرُبَّمَا اسْتُحِبَّتْ ، وَالمُدَاهَنَةُ : تَرْكُ الدِّيْنِ لِصَلاحِ الدُّنْيَا ، وَالنَّبِيُّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِنَّمَا بَذَلَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ حُسْنَ عِشْرَتِهِ وَالرِّفْقَ فِي مُكَالَمَتِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَمْدَحْهُ بِقَوْلٍ ، فَلَمْ يُنَاقِضْ قَوْلَهُ فِيْهِ فِعْلُهُ ، فَإِنْ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٠٣٢) ، ومُسْلِمٌ (٢٥٩١) وَاللَّفْظُ لَهُ .

قَوْلُهُ فِيْهِ حَقٌّ ، وَفِعْلُهُ مَعَهُ حُسْنُ عِشْرَةٍ فَيَزُولُ مَعَ هَذَا التَّقْرِيْرِ الإِشْكَالُ بِحَمْدِ اللهِ -تَعَالَىٰ-.

قَالَ عِيَاضٌ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« وَأَمَّا إِلَانَةُ القَوْلِ لَهُ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ فَعَلَىٰ سَبِيْلِ التَّأَلُّفِ لَهُ » (١).

وَمِنْ جَمِيْلِ مَا قِيْلَ فِي المُوَارَةِ قَوْلُ أَبِي سُلَيْمَانَ الخَطَّابِيِّ:

مَا دُمْتَ حَيًّا فَدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي دَارِ المُدَارَاةِ
دُنْيَاكَ ثَغْرٌ فَكُنْ مِنْهَا عَلَىٰ حَذَرٍ ... فَالثَّغْرُ مَثْوَىٰ مَخَافَاتٍ وَآفَاتِ (٢)

وَقَدْ تَوَالَتْ نَصَائِحُ السَّلَفِ بِلزُومِ المُدَارَاةِ .

قَالَ النظَّامُ : مَا يَسُرَّنِي تَرْكُ المُدَارَاةِ وَلِي حُمْرُ النَّعَمِ ، فَقِيْلَ لَهُ : وَلِمَ ؟ .

قَالَ : لِأَنَّ الأَمْرَ إِذَا غَشِيَكَ فَشَخَصْتَ لَهُ أَرْدَاكَ ، وَإِذَا طَأْطَأْتَ لَهُ تَخَطَّاكَ (٣).

وَيُعْجِبُنِي قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيْرَةٍ ... يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ (٤)

---

(١) «فَتْحُ البَارِيّ» (١٠/ ٤٥٤) .
(٢) « أَحْسَنَ مَا سَمِعْتُ » لِلثَّعَالِبِيِّ (٨٨) .
(٣) « الذَّخَائِرُ والعَبْقَرِيَّات» (١/ ١٥٩) .
(٤) « دِيْوَانُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلْمَىٰ » (٥) .

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَادِ -حَفِظَهُ اللهُ-:

رَأَيْــــتُ أَهْــنَــأَ دَارِ يَـعِـيْـشُ فِـيْـهَـا الْمُــدَارِي
وَكُــلُّ مَــنْ لَمْ يُـدَارِ فَــإِنَّــهُ غَــيْــرُ دَارِ

وَقَالَ آخَرُ:

وَأَنْزَلَنِي طُــولُ النَّـوَىٰ دَارَ غُرْبَةٍ إِذَا شِـئْتُ لاَقَيْتُ امْرِءًا لاَ أُشَاكِلُهْ
فَحَامَقْتُــهُ حَتَّىٰ يُقَــالَ سَـجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لِكُنْتُ أُعَاقِلُهْ (١)

وَقَالَ الحَجَّاجُ لابْنِ القَرِيَةِ: «مَنْ أَعْقَلِ النَّاسِ؟.

قَالَ: الَّذِي يُحْسِنُ الْمُدَارَاةَ مَعَ أَهْلِ زَمَانِهِ» (٢).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَكِيٍّ: «تَرْكُ الْمُدَارَاةِ طَرَفٌ مِنَ الجُنُونِ» (٣).

وَمِنْ أَمْثَالِ العَرَبِ: «إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنْ» (٤).

أَيْ إِذَا عَاسَرَكَ فَيَاسِرْهُ أَوْ لَايِنْ إِذَا عَزَّكَ مَنْ تُخَاشِنُهُ» (٥).

---

(١) «دِيْوَانُ الشَّافِعِيِّ» (٢١).
(٢) «الشَّكْوَىٰ وَالعِتَاب» لِلثَّعَالِبِيِّ (١٩٨).
(٣) «الكَشْكُولُ» (٢/ ١٤٤).
(٤) «خَاصُّ الخَاصِّ» (١٧).
(٥) «خَرِيْدَةُ القَصْرِ» (٢/ ٥١٤).

وَمِنْ أَقْوَالُ العَرَبِ : « مَنْ غَرَسَ المُدَارَاةَ اجْتَنَىٰ السَّلَامَةَ »[١].

وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« مَنْ الْتَمَسَ رِضَا جَمِيْعِ النَّاسِ الْتَمَسَ مَا لاَ يُدْرَكُ، وَلَكِنْ يَقْصِدُ العَاقِلُ رِضَا مَنْ لاَ يَجِدُ مِنْ مُعَاشَرَتِهِ بُدًّا ، وَإِنْ دَفَعَهُ الوَقْتُ إِلَىٰ اسْتِحْسَانِ أَشْيَاءَ مِنَ العَادَاتِ كَانَ يَسْتَقْبِحُهَا وَاسْتِقْبَاحِ أَشْيَاءَ كَانَ يَسْتَحْسِنُهَا مَا لَمْ يَكُنْ مَأْثَمًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ المُدَارَاةِ ، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ دَارَىٰ فَلَمْ يَسْلَمْ فَكَيْفَ تُوجَدُ السَّلَامَةُ لِمَنْ لاَ يُدَارِيْ »[٢].

وَقَالَ العَتَابِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« المُدَارَاةُ سِيَاسَةٌ رَفِيْعَةٌ تَجْلِبُ المَنْفَعَةَ ، وَتَدْفَعُ المَضَرَّةَ ، وَلاَ يَسْتَغْنِي عَنْهَا مَلِكٌ وَلَا سُوْقَةٌ وَلاَ يَدَعُ أَحَدٌ مِنْهَا حَظَّهُ إِلَّا غَمَرَتْهُ صُرُوفُ المَكَارِهِ »[٣].

٢٩ــ التَّغَافُلُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ التَّغَافُلُ عَنْ كَثِيْرٍ مِنَ الأُمُورِ ؛ فَإِنَّكَ لاَ تَجِدُ -أَبَدًا- أَحَدًا يَتَغَافَلُ عَنْ مَالِهِ إِذَا خَرَجَ ، وَعَنْ مُبَايَعَتِهِ إِذَا غُبِنَ ، وَعَنْ التَّقَاضِي إِذَا بُخِسَ ، وَعَنْ كَلِمَةٍ عَوْرَاءَ مَرَّتْ بِجَانِبِهِ إِلَّا وَجَدْتَ لَهُ فِي قَلْبِكَ فَضِيْلَةً وَجَلَالَةً مَا تَقْدِرُ عَلَىٰ دَفْعِهَا ، وَالخَطَأُ مِنْ طَبِيْعَةِ البَشَرِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ

(١) «رَوْضَةُ العُقَلَاءِ» (٧٢) .

(٢) «رَوْضَةُ العُقَلَاءِ» (٧٧) .

(٣) «زَهْرَةُ الأَدَبِ» (٤/ ١٠٥٦) .

النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَصْحَابَهُ أَنَّهُمْ لاَ يَصِلُونَ إِلَىٰ مَنْزِلَةٍ لاَ يُوقِعُونَ فِيهَا ذَنْبًا ، فَقَالَ : «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**» (١) .

وَلَمَّا أَفْشَتْ حَفْصَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- مَا أَسَرَّهُ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَهَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ فَلَمْ يُفِضْ فِي الْمُنَاقَشَةِ أَوْ يَسْتَقْصِي ، بَلْ كَانَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَمَا قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ **عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ** ﴾ [التَّحْرِيمُ:٣] .

كُلُّ ذَلِكَ كَرَمًا مِنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَحُسْنَ تَرْبِيَةٍ وَرِعَايَةٍ .

قَالَ الحَسَنُ -رَحِمَهُ اللهُ-: « مَا اسْتَقْصَىٰ كَرِيمٌ قَطُّ » .

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: « مَا زَالَ التَّغَافُلُ مِنْ شِيَمِ الكِرَامِ » .

وَمِنْ جَمِيلِ مَا قِيلَ فِي التَّغَافُلِ :

وَأُغْضِي عَنِ العَوْرَاءِ حَتَّىٰ يُقَالَ لِي بِأُذْنَيْهِ وَقْرٌ عِنْدَهَا حِينَ يَنْطِقُ
حَيَاءً وَإِكْرَامًا لِعِرْضٍ أَصُونُهُ وَلاَ خَيْرَ فِي عِرْضٍ يَظَلُّ يُمَزَّقُ (٢)

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٦٨٩٩) .
(٢) « غُرَرُ الخَصَائِصِ الوَاضِحَةِ » (١٣٦) .

وَقَالَ آخَرُ :

دَعِـــي مُــلاحَـــاةَ مَـــنْ هَـجَـانِي ... يَـا نَـفْـسُ إِنْ تَـغْـفَـلِي تُـصَـانِي
إِذَا حَـكَـيْـتُ الـبَـذَا عَـلَـيْـهِ ... فَـمَا هَـجَـانِي سِـوَىٰ لِـسَـانِي [١]

وَسُئِلَ حِكِيْمٌ : مَنْ اللَّبِيْبُ ؟، فَقَالَ : الفَطِنُ الْمُتَغَافِلُ [٢] .

وَقِيْلَ : مَنْ تَغَافَلَ فَعَقِّلُوهُ ، وَمَنْ تَكَايَسَ فَطَبْطِبُوهُ ، أَيْ العَبُوا بِهِ عَلَىٰ الطِّبْطَابَةِ » [٣].

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

لَـيْـسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَـوْمِـهِ ... لَكِنَّ سَيِّدَ قَـومِـهِ الْمُتَغَابِي [٤]

وَقَالَ أَبُو فِرَاسٍ وَأَحْسَنَ :

تَغَابَيْتُ عَنْ قَوْمِي فَظَنُّوا غَبَاوَتِي ... بِمَفْرِقِ أَغْبَانَا حَصًىٰ وَتُرَاب [٥]

وَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ هُوَ التَّغَافُلُ المَحْمُودُ ، كَالتَّغَافُلِ عَنِ ذُنُوبِ النَّاسِ وَعُيُوبِهِمْ ، والتَّهَاوُنِ بِمُفَاضَحَتِهِمْ أَوْ مَا كَانَ لِحَظِّ النَّفْسِ ، وَأَمَّا العِرْضُ

---

(١) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (١٣٦) .
(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/ ٤١) .
(٣) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (١/ ٤١) .
(٤) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (١/ ٤١) .
(٥) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (١/ ٤١) .

أَوْ الشَّرْعُ فَدُوْنَهُ بِيْضُ الأَنُوقِ أَوْ خَرْطُ التَّتَادِ ، وَالتَّغَافُلُ عَنْ ذَلِكَ لُؤْمٌ كَمَا قِيْلَ: « اللُّوْمُ سُوْءُ التَّغَافُلُ » (١).

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَادِ -حَفِظَهُ اللَّهُ-:

تَغَافَلْتُ عَنْ عَيْبِ الصَّدِيْقِ وَذَنْبِهِ ... وَمَا خَصَّنِي مِنْ عِلْيَةٍ أَوْ أَسَافِلِ
وَلَسْتُ عَنْ الأَعْرَاضِ وَالشَّرْعِ غَافِلاً ... حَذَارِ؛ فَإِنَّ اللُّؤْمَ سُوءُ التَّغَافُلِ

٣٠ـ الاقْتِصَادُ فِي المِزَاحِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الاقْتِصَادُ فِي المِزَاحِ؛ إِلَّا فِي السَّفَرِ ، والمِزَاحُ يَدُورُ مَعْنَاهُ حَوْلَ المُبَاسَطَةِ وَالمُلاعَبَةِ والتَّلَطُّفِ وَوَسَائِلُهُ مُتَنَوِّعَةٌ، فَقَد يَكُونُ بِابْتِسَامَةٍ أَوْ نُكْتَةٍ أَوْ نَادِرَةٍ ، أَوْ فُكَاهَةٍ ، أَوْ مُلْحَةٍ أَوْ بِإِشَارَةٍ أَوْ حَرَكَةٍ يُرَادُ بِهَا المُبَاسَطَةُ وَإِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَىٰ قَلْبِ المُسْلِمِ ، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيْكَ لَكَ صَدَقَةٌ** » (٢).

وَالمِزَاحُ أَمْرٌ مَشْرُوعٌ وَمَنْدُوبٌ إِلَيْهِ بَيْنَ الإِخْوَةِ وَالأَصْدِقَاءِ بِمَا لاَ أَذَىٰ فِيْهِ وَلاَ ضَرَرَ ، وَلاَ قَذْفَ وَلاَ غِيْبَةَ ، وَلَا شَيْنَ فِي عِرْضٍ أَوْ دِيْنٍ ، وَلاَ اسْتِخْفَافًا

(١) « نَثْرُ الدُّرَرُ فِي المُحَاضَرَات» (٤/ ١٠٨) .
(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ (١٩٥٦)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ» (٢٩٠٨) .

بِأَحَدٍ وَلاَ يَكُونُ كَذِبًا .

والحِكْمَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّتِهِ أَنَّ فِيْهِ إِدْخَالاً لِلسُّرُورِ عَلَىٰ قَلْبِ الْمُسْلِم وَيُسْتَعَانُ بِهِ عَلَىٰ التَّخَلُّصِ مِنَ السَّأَمِ والمَلَلِ وَطَرْدِ الوَحْشَةِ ، وَدَفْعِ الهَمِّ والخَوْفِ والقَلَقِ وَنَحْوِهِ عَنْ قَلْبِ الْمُسْلِم ، وَفِيْهِ تَأْلِيْفُ القُلُوبِ فَتَنْشَطُ النُّفُوسُ وَتَتَهَيَّأُ الأَجْسَادُ لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، لَكِنْ لاَ بُدَّ لِلمِزَاحِ مِنْ شُرُوطٍ.

شُرُوطُ المِزَاحِ :

مِنْ شُرُوطِ المِزَاحِ الاقْتِصَادُ فِيْهِ ؛ إِلَّا فِي السَّفَرِ وَهَذَا هُوَ بَيْتُ القَصِيْدِ وَمَرْبَطُ الفَرَسِ وَلِمَاذَا السَّفَرُ ؟ .

قَالَ رَبِيْعَةُ -رَحِمَهُ اللهُ- :

« مِنْ خِصَالِ الْمُرُوءَةِ ثَلاَثٌ فِي الحَضَرِ وَ ثَلاَثٌ فِي السَّفَرِ ... وَالَّتِي فِي السَّفَرِ : فَبَذْلُ الزَّادِ وَحُسْنُ الخُلُقِ ، وَكَثْرَةُ المَزَاحِ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ » (١).

وَكَانَ الصَّحَابَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- يُنْهَوْنَ عَنِ الإِفْرَاطِ فِي المَزَاحِ ، قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاص -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- نَاصِحًا لابْنِهِ : «اقْتَصِدْ فِي مِزَاحِكَ فَإِنَّ الإِفْرَاطَ فِيْهِ يُذْهِبُ البَهَاءَ ، وَيُجَرِّئُ عَلَيْكَ السُّفَهَاءَ » .

والحِكْمَةُ مِنْ هَذَا النَّهْيِ يُوَضِّحُهَا الإِمَامُ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِقَوْلِهِ: «المَزَاحُ المَنْهِيُّ عَنْهُ ، هُوَ الَّذِي فِيْهِ إِفْرَاطٌ وَيُدَاوَمُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يُورِثُ

---

(١) «شَرْحُ السُّنَّةِ» لِلبَغَوِيِّ (٣١/ ٨١٣) .

الضِّحكَ وَقَسْوَةَ القَلْبِ وَيَشْغَلُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَيَـؤُولُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَوْقَاتِ إِلَىٰ الإِيْذَاءِ وَيُورِثُ الأَحْقَادَ وَيُسْقِطُ المَهَابَةَ وَالوَقَارَ ، وَأَمَّا إِذَا سَلِمَ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ فَهُوَ مِنَ المِزَاحِ المُبَاحِ ؛ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَفْعَلُهُ » (١).

وَلَعَلَّ الحَافِظَ ابْنَ الجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- يُشِيْرُ إِلَىٰ أَمْثَالِ هَؤُلاَءِ بِقَوْلِهِ : «رَأَيْتُ مَشَايِخَ كَانَتْ لَهُمْ خَلْوَاتٌ فِي انْبِسَاطٍ وَمِزَاحٍ ، فَرَاحُوا عَنِ القَلْبِ ، وَبَدَّدَ تَفْرِيْطُهُمْ مَا جَمَعُوا مِنَ العِلْمِ فَقَلَّ الانْتِفَاعُ بِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ ، وَنُسُوا بَعْدَ مَمَاتِهِمْ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَىٰ مُصَنَّفَاتِهِمْ » (٢) .

أَقْلِلِ المِـزْحَ مَا اسْتَطَعْتَ وَلاَ تَأْ ... تِ بِـنَـزْرٍ إِلَّا وَفِـيْـهِ احْتِيَاطُ
وَتَـوَقَ الإِفْـرَاطَ فِيْهِ فَقَدْ يُفْرِطُ ... فِي وَضَـعِ قَـدْرِكَ الإِفْــرَاطُ (٣)

وَقَالَ أَبُو الفَتْحِ البَسْتِيُّ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بِالجِدِّ رَاحَةً ... قَلِيْلاً وَعَلِّلْهُ بِشَيْءٍ مِنَ المَـزَاحِ
وَلَكِنْ إِذَا أَعْطَيْتَهُ المِزْحَ فَلْيَكُنْ ... بِمِقْدَارِ مَا تُعْطِي الطَّعَامَ مِنَ المِلْحِ (٤)

---

(١) « الأَذْكَارُ » لِلنَّوَوِيِّ (٨٦٤) .
(٢) « صَيْدُ الخَاطِرِ » (١٤٤) .
(٣) « دَوَاوِيْنُ الشِّعْرِ العَرَبِي عَلَىٰ مَرِّ العُصُورِ » (١٩/ ٤٧٤) .
(٤) « اللَّطَائِف والظَّرَائِف » لِلثَّعَالِبِي (١٥١) .

٣١ـ اتِّزانُ الكلام :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ اتِّزَانُ الكَلَامِ ؛ فَإِنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ بِالكَلَامِ وَالْمُلَاحَاةِ خِلَافُ السَّكِيْنَةِ ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي بَابِ الصَّوْتِ الْمُنْكَرِ .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾ [لُقْمَانُ:١٩] .

قَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ ﴾ أَيْ لَا تُبَالِغْ فِي الكَلَامِ، وَتَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيْمَا لَا فَائِدَةَ فِيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾ .

قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: « ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾ أَيْ : غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنْ يُشَبَّهَ بِالحَمِيْرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفْعِهِ وَهُوَ مَعَ هَذَا بَغِيْضٌ إِلَىٰ اللهِ ، وَهَذَا التَّشْبِيْهُ بِالحَمِيْرِ يَقْتَضِي تَحْرِيْمَهُ، وَذَمَّهُ غَايَةَ الذَّمِّ »(١).

وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَادِ -حَفِظَهُ اللهُ- :

أَرَىٰ البَحْرَ حَيْثُ العُمْقُ وَالدُّرُّ هَادِئًا ... وَيُلْقَىٰ ضَجِيْجُ البَحْرِ عِنْدَ السَّوَاحِلِ
فَكُنْ هَادِئًا طَبْعًا تَكُنْ ذَا مَهَابَةٍ ... وَلَا تَرْفَعَنَّ الصَّوْتَ عِنْدَ التَّجَادُلِ
فَصَوْتُكَ لَا يُعْطِيْكَ قُوَّةَ حُجَّةٍ ... وَغَضُّكَ لَا يُرْدِيْكَ بَيْنَ الأَرَاذِلِ

---

(١) « تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيْرٍ » (٣/ ٤٣٠) .

فَعَقْلُ الفَتَىٰ عُنْوَانُهُ فِي لِسَانِهِ وَعِلْمُ الفَتَىٰ يُعْلِيْهِ عَنْ كُلِّ سَافِلِ

٣٢ـ حُسْنُ الاسْتِمَاعِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ حُسْنُ الاسْتِمَاعِ ؛ وَذَلِكَ بِسُكُونِ الجَوَارِحِ وَغَضِّ البَصَرِ وَالإِصْغَاءِ بِالسَّمْعِ وَحُضُورِ القَلْبِ وَالإِقْبَالِ بِالوَجْهِ وَالنَّظَرِ إِلَىٰ المُتَكَلِّمِ وَتَجَنُّبِ المُقَاطَعَةِ .

قَالَ الحَسَنُ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« إِذَا جَالَسْتَ فَكُنْ عَلَىٰ أَنْ تَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْكَ عَلَىٰ أَنْ تَقُولَ ، وَتَعَلَّمْ حُسْنَ الاسْتِمَاعِ ؛ كَمَا تَعَلَّمُ حُسْنَ القَوْلِ، وَلَا تَقْطَعْ عَلَىٰ أَحَدٍ حَدِيْثَهُ » (١) .

وَقَالَ ابْنُ المُقَفَّعِ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

«تَعَلَّمْ حُسْنَ الاسْتِمَاعِ ؛ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنُ الكَلَامِ ؛ وَمِنْ حُسْنِ الاسْتِمَاعِ: إِمْهَالُ المُتَكَلِّمِ حَتَّىٰ يَنْقَضِي حَدِيْثُهُ ، وَقِلَّةُ التَّلَفُّتِ إِلَىٰ الجَوَابِ ، وَالإِقْبَالُ بِالوَجْهِ ، والنَّظَرُ إِلَىٰ المُتَكَلِّمِ ، وَالوَعْيُ لِمَا يَقُولُ » (٢) .

وَقَالَ : « وَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلاً يُحَدِّثُ حَدِيْثًا قَدْ عَلِمْتَهُ ، أَوْ يُخْبِرَ خَبَرًا سَمِعْتَهُ فَلَا تُشَارِكْهُ فِيْهِ ، وَلاَ تَتَعَقَّبْهُ عَلَيْهِ حِرْصًا عَلَىٰ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّكَ قَدْ

(١) «المُنْتَقَىٰ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ » (١٥٥) .
(٢) « الأَدَبُ الكَبِيْـرُ وَالأَدَبُ الصَّغِيْـر» لابْنُ المُقَفَّع (١٢٦) .

عَلِمْتَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ خِفَّةٌ وَسُوْءُ أَدَبٍ وَسُخْفٌ »[١] .

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ :

مَـنْ لِي بِإِنْسَـانٍ إِذَا أَغْضَبْتُـهُ ... وَجَهِلْـتُ كَانَ الحِلْـمَ رَدَّ جَوَابِهِ
وَإِذَا جَلَسْـتُ إِلَىٰ المُدَامِ شَرِبْتُ مِنْ ... أَخْلاَقِـهِ، وَسَـكِرْتُ مِـنْ آدَابِهِ
وَتَـرَاهُ يُصْغِي لِلحَدِيْثِ بِسَـمْعِهِ ... وَبِقَلْبِـهِ ، وَلَعَلَّـهُ أَدْرَىٰ بِـهِ [٢]

٣٣ـ تَوْطِيْنُ النَّفْسِ عَلَى تَحَمُّلِ المَكَارِهِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ تَوْطِيْنُ النَّفْسِ عَلَىٰ تَحَمُّلِ المَكَارِهِ ؛ فَإِنَّ الحَيَاةَ لاَ تَخْلُو مِنْهَا .

قَالَ اللهُ –سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ–: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البَقَرَةُ : ١٥٥-١٥٧] [٣] .

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الأَبْرَارُ يَسْتَقْبِلُونَ المَكَارِهَ كَمَا يَسْتَقْبِلُونَ المَكَارِمَ ، فَهَذَا الصَّحَابِيُّ الجَلِيْلُ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي دَارِهِ إِذْ

(١) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (١٣٩) .
(٢) « طَرَائِقُ الحِكْمَةِ » (١/ ٧٣) .
(٣) « أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّيْنِ » .

أَتَتْهُ جَارِيَةٌ لَهُ بِسَفُّودٍ عَلَيْهِ شِوَاءٌ، فَسَقَطَ مِنْ يَدِهَا،فَوَقَعَ عَلَىٰ ابْنٍ لَهُ صَغِيرٍ فَمَاتَ، فَدُهِشَتْ الجَارِيَةُ، فَقَالَ لَهَا: لاَ رَوْعَ عَلَيْكِ ، أَنْتِ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ»(٤).

وَبَيْنَمَا هُوَ قَاعِدٌ بِفِنَاءِ دَارِهِ مُحْتَبِيًا بِحَمَائِلِ سَيْفِهِ يُحَدِّثُ قَوْمَهُ حَتَّىٰ أَتَىٰ بِرَجُلٍ مَكْتُوفٍ ، وَرَجُلٍ مَقْتُولٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هَذَا ابْنُ أَخِيكَ قَتَلَ ابْنَكَ ، فَوَاللهِ مَا حَلَّ حَبْوَتَهُ، وَلاَ قَطَعَ كَلاَمَهُ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ وَقَالَ : يَا ابْنُ أَخِي أَثِمْتَ بِرَبِّكَ ، وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ وَقَتَلْتَ ابْنُ عَمَّكَ !!، ثُمَّ قَالَ لابْنٍ لَهُ آخَرَ : قُمْ فَوَارِ أَخَاكَ ، وحُلَّ كِتَافَ ابْنِ عَمَّكَ ، وَسُقْ إِلَىٰ أُمِّهِ مَائَةَ نَاقَةٍ فَإِنَّهَا غَرِيْبَةٌ » (٥).

حَقًّا إِنَّهَا سَكِيْنَةٌ تَزِنُ الجِبَالَ رَزَانَةً !! .

٣٤ــ الاسْتِرْجَاعُ عِنْدَ المُصِيْبَةِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الاسْتِرْجَاعُ عِنْدَ الْمُصِيْبَةِ ، وَالاسْتِرْجَاعُ هُوَ قَوْلُ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ : « إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» ، اللَّهُمْ اجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا آجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيْبَتِهِ** ،

(٤) « أُصُولُ الدَّعْوَة» (٢٦١) .
(٥) « لَا تَغْضَب» لِمُحَمَّد العَمَّارِي (١٦) .

وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا »[(١)].

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الاسْتِرْجَاعَ مِنْ أَسْبَابِ السَّكِينَةِ قَوْلُ اللهُ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ** ﴾ [التَّغَابُن:١١].

أَيْ وَمَنْ يُصَدِّقْ بِاللهِ فَيَعْلَمْ أَنَّهُ لاَ أَحَدَ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ-تَعَالَىٰ-وَيَسْتَرْجِعْ يَهْدِ قَلْبَهُ لِلتَّسْلِيمِ وَالرِّضَا.

قَالَ الإِمَامُ الطَّبَرِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-:

« يُوَفِّقُ اللهُ قَلْبَهُ بِالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ »[(٢)].

وَأَيُّ سَكِينَةٍ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ.

٣٥-مُصَاحَبَةُ ذَوِي السَّكِينَةِ:

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِينَةِ مُصَاحَبَةُ ذَوِي الطَّبْعِ الهَادِئِ وَأَصْحَابِ السَّكِينَةِ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيْلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ** »[(٣)].

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-أَنَّ النَّبِيَّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٠٧٧).

(٢) «جَامِعُ البَيَان» (٢٣/ ٤٢).

(٣) (حَسَنٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدُ (٤٨٣٣)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-فِي «صَحِيحِ الجَامِعِ» (٣٥٤٥).

وَسَلَّمَ-قَالَ: « **إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيْسِ الصَّالِحِ وَجَلِيْسِ السُّوءِ كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الكِيْرِ ، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخِ الكِيْرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيْثَةً** »[1].

قَالَ النَّوَوِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-:

« وَفِيْهِ فَضِيْلَةُ مُجَالَسَةِ الصَّالِحِيْنَ ، وَأَهْلِ الخَيْرِ والمُرُوءَةِ وَمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ والوَرَعِ والعِلْمِ والأَدَبِ ، والنَّهْيِ عَنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الشَّرِّ وَأَهْلِ البِدَعِ، وَمَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ أَوْ يَكْثُرُ فُجْرُهُ وَبَطَالَتُهُ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الأَنْوَاعِ المَذْمُومَةِ»[2].

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ-رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم-يَرْحَلُونَ إِلَىٰ مَنْ تَحَلَّىٰ بِالسَّكِيْنَةِ وَالوَقَارِ فَيَأْخُذُونَ عَنْهُ .

فَكَانَ أَصْحَابَ عَبْدُ اللهِ [3] ، يَرْحَلُونَ إِلَىٰ عُمَرُ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-فَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ سَمْتِهِ وَهَدْيِهِ وَدَلِّهِ فَيَتَشَبَّهُونَ بِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-[4].

قَالَ الأَعْمَشُ-رَحِمَهُ اللهُ-: « كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ مِنَ الفَقِيْهِ كُلَّ شَيْءٍ ، حَتَّىٰ لِبَاسَهُ وَنَعْلَيْهِ »[5].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٦٠) ، ومُسْلِمٌ (٢٦٢٨) .

(٢) « شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ مُسْلِمٍ » (٥/ ٤٨٤) .

(٣) «عَبْدُ اللهِ إِذَا أُطْلِقَ فِي الصَّحَابَةِ فَهُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-» .

(٤) «الصِّحَاحِ» (٤/ ١٦٩٩) ، وَ«لِسَانُ العَرَبِ » (٣/ ١٤٢٣) .

(٥) « الآدَابُ الشَّرْعِيَةِ » (٢/ ٤١٩) .

قَالَ ابْنُ المُبَارَكِ -رَحِمَهُ اللهُ- لِرَجُلٍ سَأَلَهُ أَيْنَ تُرِيْدُ ؟ ، قَالَ : إِلَىٰ البَصْرَةِ، فَقِيْلَ لَهُ : مَنْ بَقِيَ ؟ .

قَالَ : ابْنُ عَوْنٍ ، آخُذُ مِنْ أَخْلاَقِهِ ، آخُذُ مِنْ آدَابِهِ »[١].

وَقَالَ -أَيْضًا-: « لَمْ يَكُنْ بِالمَدِيْنَةِ أَحَدٌ أَشْبَهَ بِأَهْلِ العِلْمِ مِنْ ابْنِ عَجْلاَنَ، كُنْتُ أُشَبِّهُهُ بِاليَاقُوتَةِ بَيْنَ العُلَمَاءِ »[٢] .

وَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

مَنْ كَانَ مُلْتَمِسًا جَلِيْسًا صَالِحًا فَلْيَأْتِ حَلْقَةَ مِسْعَرِ بْنِ كِدَامِ
فِيْهَا السَّكِيْنَةُ وَالوَقَارُ وَأَهْلُهَا أَهْلُ العَفَافِ وَعِلْيَةُ الأَقْوَامِ[٣]

٣٦- صُحْبَةُ الغَنَمِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ صُحْبَةُ الغَنَمِ ؛ لِأَنَّهَا تُوْرِثُ التَّوَاضُعَ والسُّكُونَ والهُدُوءَ .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ : « **رَأْسُ الكُفْرِ نَحْوَ المَشْرِقِ ، والفَخْرُ والخُيَلاَءُ فِي أَهْلِ الخَيْلِ والإِبِلِ ، وَالْفَدَّادِينَ أَهْلِ الوَبَرِ ، وَالسَّكِيْنَةُ فِي أَهْلِ الغَنَمِ** »[٤] .

(١) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (٢/ ٤١٩) .
(٢) « الجَرْحُ وَالتَّعْدِيْلُ» (١/ ٢١٧) .
(٣) «سِيَرُ أَعْلاَمِ النُّبَلاءِ » (٧/ ١٧٠) ، « وَدِيْوَانُ ابْنِ المُبَارَكِ » (٢٤) .
(٤) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٤٩٩) ، ومُسْلِمٌ (٥٢) .

قَالَ المَنَاوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّه-:

« الفَخْرُ أَيْ ادِّعَاءُ العِظَمِ وَالكِبْرِ ، والخُيَلاَءُ-بِالضَّمِّ والمَدِّ-الكِبْرُ والعُجْبُ (فِي أَهْلِ) البُيُوتِ المُتَّخَذَةِ مِنَ (الوَبَرِ) » .

قَالَ الخَطَابِيُّ -رَحِمَهُ اللَّه-:

« إِنَّمَا ذَمَّهُمْ لِاشْتِغَالِهِمْ بِمُعَالَجَةِ مَا هُمْ فِيْهِ عَنْ أَمْرِ دِيْنِهِمْ ، وَذَلِكَ يُفْضِي إِلَىٰ قَسْوَةِ القَلْبِ (وَالسَّكِيْنَةُ) وَهِيَ السُّكُونُ (وَالوَقَارُ) وَالتَّوَاضُعُ (فِي أَهْلِ الغَنَم) لِأَنَّهَا غَالِبًا دُونَ أَهْلِ الإِبْلِ فِي التَّوَسُّعِ والكَثْرَةِ ، وَهُمَا مِنْ أَسْبَابِ الفَخْرِ والخُيَلَاءِ أَيْ فَاتِّخَاذُ الغَنَمِ أَوْلَىٰ مِنْ اتِّخَاذِ الإِبِلِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ تُكْسِبُ خُلُقًا مَذْمُومًا ، وَ هَذِهِ تُكْسِبُ خُلُقًا مَحْمُودًا » [١] .

وَهُنَا فَائِدَةٌ أَنَّهُ لاَ عَيْبَ عَلَىٰ مَنْ رَعَىٰ غَنَمًا ، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ لَشَرَفٌ وَأَيُّ شَرَفٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْهُنَّ أَخْلَاقًا مَحْمُودَةً ، وَحَسْبُكَ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ -صَلاَةُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ-رَعَوْا الغَنَم ، فَأَيُّ شَرَفٍ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَالَ: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَىٰ الغَنَمَ** » ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟.

قَالَ : « **وَأَنَا كُنْتُ أَرْعَاهَا لِأَهْلِ مَكَّةَ بِقَرَارِيْطَ** » [٢] .

(١) « فَيْضُ القَدِيْرُ » (٤/ ٤٦٢) .

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢١٤٣) .

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« وَإِنَّمَا جَعَلَ اللهُ الرَّعْيَ فِي الأَنْبِيَاءِ تَقْدِمَةً لَهُمْ لِيَكُونُوا رُعَاةَ الخَلْقِ ، وَلِيَكُونَ أُمَمُهُمْ رعَايَاتُهُمْ »[(١)] .

٣٧ـ الأَمْنُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِينَةِ الأَمْنُ ؛ وَأَصْلُ الأَمْنِ طُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ وَعَدَمُ خَوْفِهَا .

وَالمُرَادُ بِالأَمْنِ هُنَا اطْمِئْنَانُ الفَرْدِ والأُسْرَةِ وَالمُجْتَمَعِ عَلَىٰ أَنْ يَحْيَوْا حيَاةً طَيِّبَةً فِي الدُّنْيَا ، وَلاَ يَخَافُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَعُقُولِهِمْ ونَسْلِهِمْ مِنَ الاعْتِدَاءِ عَلَيْهَا ، أَوْ عَلَىٰ مَا يَصُونُهَا وَيُكَمِّلُهَا ، وَكَذَلِكَ الاطْمِئْنَانُ عَلَىٰ سَعِيِهِمْ إِلَىٰ كُلِّ مَا يُرْضِي رَبَّهُمْ .

وَأَهَمُّ أَسْبَابِ الأَمْنِ الالْتِزَامُ بِمَنْهَجِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وَعِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ ، وَعَدَمُ طَاعَةِ غَيْرِهِ فِي مَعْصِيَتِهِ .

قَالَ اللهُ- تَعَالَىٰ-: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ [النُّور:٥٥][(٢)] .

(١) « شَرْحُ البُخَارِيُّ » لِلسَّفِيْري (١/ ٤٤١) .
(٢) انْظُرْ: « أَثَرُ التَّرْبِيَةُ الإِسْلامِيَة فِي أَمْنِ المُجْتَمَع » لِعَبْد الله الأَهْدَلِ (١٣).

٣٨ــ الزَّوَاجُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الزَّوَاجُ ؛ فَالزَّوَاجُ سَكِيْنَةٌ وَطُمَأْنِيْنَةٌ وَمَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ ، دَلَّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الرُّومُ:٢١] .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأَعْرَافُ:١٨٩] .

وَالسَّكَنُ رَاحَةٌ وَاطْمِئْنَانٌ ، وَالمَوَدَّةُ مَحَبَّةٌ تَجْمَعُ بَيْنَ القُلُوبِ ، والرَّحْمَةُ عَطْفٌ وَحَنَانٌ وَرِعَايَةٌ .

وَالإِنْسَانُ الَّذِي يَجْتَمِعُ مَعَ المَرْأَةِ فِي الحَلالِ يُدْرِكُ بِوُضُوحٍ مَعْنَىٰ السُّكْنَىٰ إِلَيْهَا والمَيْلِ لَهَا ، والهُدُوءِ النَّفْسِيِّ عِنْدَمَا يَزُورُهَا ، وَهَذَا التَّأَلُّفُ وَالسَّكَنُ وَالطُّمَأْنِينَةُ قَائِمٌ فِي أَعْمَاقِ كُلٍّ مِنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ فَكُلٌّ مِنْهُمَا لِبَاسٌ لِلآخَرِ .

وَمِنْ طَرِيْفِ مَا يُذْكَرُ أَنَّ رَجُلاً غَرِيْبًا عَنْ وَطَنِهِ كَتَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ :

يَا مَانِعًا مُقْلَتِي مِنْ لَذَّةِ الوَسَنِ ... رُوْحِي تَقِيْكَ مِنَ الأَسْوَاءِ والحَزَنِ
واللهِ لاَ سَكَنَتْ رُوْحِي إِلَىٰ سَكَنٍ ... إِلَّا إِلَيْكَ وَلاَ حَنَّتْ إِلَىٰ وَطَنِ (١)

(١) « الزَّهْرَةُ » لأَبِي بَكْرٍ الظَّاهِرِيِّ (١١٢) .

٣٩ــ أَكْلُ التَّمْرِ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ أَكْلُ التَّمْرِ ؛ فَقَدْ ثَبَتَ عِلْمِيًّا بَعْدَ تَجَارُبَ عَدِيْدَةٍ أَنَّ لِلتَّمْرِ خَاصِيَّةً عَجِيْبَةً تُضْفِي السَّكِيْنَةَ وَالدَّعَةَ عَلَىٰ النُّفُوسِ القَلِقَةِ المُضْطَرِبَةِ (١)، وَذَكَرَ عُلَمَاءُ التَّغْذِيَةِ أَنَّ ذَلِكَ الاضْطِرَابَ وَالقَلَقَ نَاتِجٌ عَنْ سُوءِ التَّغْذِيَةِ، وَلاَ يُكَمِّلُ ذَلِكَ النَّقْصَ غَيْرُ التَّغْذِيَةَ وَأَنَّ تِلْكَ التَّغْذِيَةِ مُجْتَمِعَةٌ فِي التَّمْرِ .

وَذَكَرَتْ التَّجَارِبُ أَنَّهَا شَمَلَتْ الأَطْفَالَ فَوَجَدَتْ الأَطْفَالَ المُشَاكِسِيْنَ وَالَّذِيْنَ عِنْدَهُمْ اضْطِرَابٌ فِي السُّلُوكِ سَكَنَ طَبْعُهُمْ بَعْدَ إِعْطَائِهِمْ التَّمْرِ لِفَتْرَةٍ.

قُلْتُ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مَرْيَمُ :٢٥-٢٦] .

أَيْ : فَكُلِيْ وَاشْرَبِي وَطَيِّبِيْ نَفْسًا وَأَبْعِدِي عَنْكِ الهُمُومَ والأَحْزَانَ ، وَفِي صَحِيْحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيْثِ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا– قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : «**بَيْتٌ لاَ تَمْرَ فِيْهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ**» (٢) .

---

(١) كَثِيرٌ مِنَ الاضْطِرَابِ والقَلَقِ يَكُونُ سَبَبُهُ نَقْصُ التَّغْذِيَةِ وَتِلْكَ حَقَائِقُ عِلْمِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ أَلاَ تَرَىٰ الجَائِعُ إِذَا بَلَغَ بِهِ الجُوْعُ مَبْلَغَهُ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٠٤٦) .

وَفِي الحَدِيْثِ إِثْبَاتُ الجُوعِ لِمَنْ لاَ يَتَنَاوَلُ التَّمْرَ وَفِي وَصْفِهِمْ بِالجُوعِ «**جِيَاعٌ أَهْلُهُ**» ، دَلاَلَةٌ صَرِيْحَةٌ عَلَىٰ تَحْقِيْقِ الجُوعِ عِنْدَ غِيَابِ هَذَا الطَّعَامِ أَي سُوءُ تَغْذِيَةٍ .

وَهَذَا الحَدِيْثُ هُوَ الَّذِي دَفَعَ أَحَدَ عُلَمَاءِ التَّغْذِيَةِ المُسْلِمِيْنَ [١] إِلَىٰ البَحْثِ عَنْ القِيْمَةِ الغِذَائِيَّةِ فِي التَّمْرِ مُقَارَنَةً بِغَيْرِهِ مِنَ الأَطْعِمَةِ حَتَىٰ خَرَجَ بِنَتَائِجَ مُذْهِلَةٍ لَيْسَ هُنَا مَحَلُّهَا ، وَاللهُ المُوَفِّقُ .

يَا صَاحِبًا لِي إِنْ يَغِبْ فَعُهُودُهُ ... لَمْ تُنْسَ حَيْثُ تَنَاسَتِ الغُيَّابُ
أَرْسَلْتَ تَمْرًا بَلْ نَوًى فَقَبِلْتُهُ ... بِيَدِ الوِدَادِ فَمَا عَلَيْكَ عِتَابُ
وَإِذَا تَبَاعَدَتِ الجُسُومُ فَوِدُّنَا ... بَاقٍ ، وَنَحْنُ عَلَىٰ النَّوَىٰ أَحْبَابُ

٤٠ ـ الدُّعَاءُ :

وَمِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ الدُّعَاءُ ؛ وَالدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ .

فَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيْرٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: « **الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ** » ، ثُمَّ قَرَأَ –قَوْلُهُ تَعَالَىٰ– : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غَافِرُ: ٦٠] [٢] .

---

(١) هُوَ الدُّكْتُور مُعِز الإِسْلام عِزت فَارِس، أُسْتَاذ قِسْم التَّغْذِيَة جَامِعَةُ حَائِل (٢٠٤٦) .
(٢) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدُ (١٤٧٩)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ– فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ» (٣٤٦٧) .

وَجَمِيلٌ أَنْ تُكْثِرَ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ لِيَسْتَجِيْبَ اللهُ لَكَ فِي أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَىٰ السَّكِيْنَةِ فِي شَدَّةٍ شَدِيْدَةٍ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ : « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيْبَ اللهُ لَهُ فِي الشَّدَائِدِ والكَرْبِ ؛ فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ** » (١) .

وَقَدْ سَأَلَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ رَبِّهِ السَّكِيْنَةَ فِي مَوطِنِ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا .

فَعَنْ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَقَلَ مِنْ تُرَابِ الخَنْدَقِ ، حَتَّىٰ وَارَىٰ التُّرَابُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-:

اللَّهُمَّ لَـولاَ أَنْـتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَـصَـدَّقْـنَـا وَلا صَلَّيْنَا
فَـأَنْـزِلَـنْ سَـكِـيْـنَـةً عَلَيْنَا وَثَـبِّـتِ الأَقْـدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
إِنَّ الأُلَىٰ قَـدْ بَـغَـوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا (٢)

---

(١) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ (٣٣٨٢)،وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «الصَّحِيْحَةِ» (٦٢٩٠، ٥٩٣) .

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٤١٠٦) ، ومُسْلِمٌ (١٨٠٣) بِلَفْظٍ (وَاللهِ لَوْلَا أَنْتَ) .

مَوَانِعُ السَّكِينَة

لِلسَّكِيْنَةِ مَوَانِعُ ، والمَوانعُ جَمْعُ مَانعٍ ، وَهُو اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ مَنَعَ الشَيْءَ إِذَا حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَقْصُودِهِ ، فَهَذِهِ والمَوانعُ تَحُولُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ السَّكِيْنَةِ وَلاَبُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ، وَمِنْ تِلْكَ المَوانعِ مَا يَأْتِي :

١ـ العَجَلَةُ :

وَمِنْ مَوَانعِ السَّكِيْنَةِ العَجَلَةُ ، وَتُعَرَّفُ العَجَلَةُ فِعْلُ الشَيْءَ قَبْلَ وَقْتِهِ اللائِقِ بِهِ ، وَهِيَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الشَّهْوَةِ البَغِيْضَةِ المُوَافِقَةِ لِلشَّيْطَانِ ، وَلِهَذَا صَارَتْ العَجَلَةُ مَذْمُومَةً فِي عَامَّةِ القُرْآنِ ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾[الإِسْرَاءُ:١١] .

وَقَالَ اللهُ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ ﴾[الأَنْبِيَاءُ:٣٧] .

وَقَالَ اللهُ-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ ﴾[طَهَ:١١٤] .

وَلَقَدْ جَاءَ لَفْظُ العَجَلَةِ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ مُتَصَرِّفًا فِي سَبْعَةٍ وَثَلاثِيْنَ مَوْضِعًا كُلُّهَا عَلَىٰ سَبِيْلِ الذَّمِّ إِلَّا مَوْضِعًا وَاحِدًا وَهُوَ قَوْلُ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ

﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ ﴾ [البَقَرَةُ :٢٠٣] .

وَلِهَذَا كَانَ التَّأَنِّي والتَّرَوِّيْ مِنْ الأَخْلاقِ الكَرِيْمَةِ الَّتِي حَثَّ عَلَيْهَا الكِتَابُ والسُّنَّةَ، قَالَ اللهُ –سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ–: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾ [الحُجُرَاتُ:٩] .

وَعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: « **التَّأَنِّي مِنَ اللهِ ، والعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ** » [(١)] .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

« إِنَّمَا كَانَتْ العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ ؛ لِأَنَّهَا خِفَّةٌ وَطَيْشٌ وَحِدَّةٌ فِي العَبْدِ تَمْنَعُهُ مِنَ التَّثَبُّتِ وَالوَقَارِ والحِلْمِ ، وَتُوجِبُ وَضْعَ الشَّيْءِ بِغَيْرِ مَحَلِّهِ وَتَجْلِبُ الشُّرُورَ وَتَمْنَعُ الخُيُورَ وَهِيَ مُتَوَلِّدَةٌ مِنْ خُلُقَيْنِ مَذْمُومَيْنِ، التَّفْرِيْطِ وَالاسْتِعْجَالِ قَبْلَ الوَقْتِ » [(٢)].

وَكَانَ يُقَالُ : إِنَّ مِنَ الحَزْمِ الأَنَاةَ والتَّثَبُّتَ فَإِنَّ العَجَلَةَ لاَ تَزَالُ تُورِثُ أَهْلَهَا حَسْرَةً وَنَدَامَةً [(٣)].

---

(١) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَدِهِ (٣/ ١٠٥٤)، البَيْهَقِيُّ فِي السُّنَنِ الكُبْرَىٰ (١٠/ ١٠٤٠)، وَقَالَ الأَلْبَانِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ– فِي « السِّلْسِلَةِ الصَّحِيْحَةِ » (٤/ ٤٠٤) هَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ رِجَالُهُ ثِقَاتٍ .

(٢) « الرُّوحُ » لِابْنُ القَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ– (٢٥٨) .

(٣) « المَحَاسِنُ وَالمَسَاوِئُ » (٢٠٤) .

وَقِيلَ:

الـرِّفْـقُ يُمْنٌ وَالأَنَــاةُ سَـعَـادَةٌ   فَاسْتَأْنِ فِي رِفْقٍ تُلاَقِ نَجَاحَا [١]

وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: إِيَّاكَ والعَجَلَةَ، فَإِنَّ العَرَبَ كَانَتْ تُكَنِّيْهَا أُمَّ النَّدَامَةِ؛ لأَنَّ صَاحِبَهَا يَقُوْلُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ، وَيُجِيْبُ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَ، وَيَعْزِمُ قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ، وَيَقْطَعُ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّرَ، وَيُحْمَدُ قَبْلَ أَنْ يُجَرِّبَ، وَيَذُمُّ قَبْلَ أَنْ يَخْبُرْ، وَلَنْ يَصْحَبَ هَذِهِ الصِّفَةَ أَحَدٌ إِلَّا صَحِبَ النَّدَامَةَ، وَاعْتَزَلَ السَّلَامَةَ» [٢].

وَقَالَ آخَرُ:

يَفْرَجُ الضِّيْقُ بِالتَّلَطُّفِ فِي الأَمْـ   ـرِ وَيُـودِي بِالعُمْرِ فِيْهِ اضْطِرَابُهْ
أَوْ مَا المَاءُ وَهُوَ فِي بَاطِنِ الصَّخْـ   ـرَةِ بِاللُّطْفِ رُشْحُهُ وَانْسِيَابُهْ
وَإِذَا مَا أَحَـسَّ بِالشِّرَكِ الصَّيـ   ـدُ دَهَـاهُ نُفُورُهُ وَانْـجِـذَابُـهْ [٣]

وَقَالَ آخَرُ:

لاَ تَتَعَجَّلَنَّ لِأَمْـرٍ أَنْـت طَالِبُهُ   فَقَلَّمَا يُـدرَكُ المَطْلُوبُ بِالعَجَلِ

---

(١) «زَهْرَةُ الآدَابِ وَثَمَرُ الأَلْبَابِ» (٤/ ٩٤٢).
(٢) «غُرَرُ الخَصَائِصِ الوَاضِحَةِ» (٤٤٠).
(٣) «الصَّبْـرُ مَطِيَّةُ النَّجَاحِ» لابْنِ الظَّهِيرْ (٤٤٠).

فَذُو التَّأَنِّي مُصِيْبٌ فِي مَقَاصِدِهِ   وَذُو التَّعَجُّلِ لاَ يَخْلُو مِنَ الزَّلَلِ(١)

وَالتَّأَنِّي مَطْلُوبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، لَكِنَّ العَجَلَةَ فِي بَعْضِ الأُمُورِ مِنَ الحَزْمِ كَإِسْعَافِ جَرِيْحٍ أَوْ إِنْقَاذِ غَرِيْقٍ ، وَهَلُمَّ جرًّا .

قَالَ القَطَّامِيُّ :

قَدْ يُـدْرِكُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ   وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ :

وَرُبَّـمَا فَاتَ قَوْمًا بَعْضُ أَمْرِهُمُ   مِنَ التَّأَنِّي وَكَانَ الحَزْمُ لَوْ عَجِلُوا(٢)

وَيَتَّضِحُ جَلِيًّا مِمَّا سَبَقَ أَنَّ العَجُولَ لاَ يَنَالُ السَّكِيْنَةَ وَلاَ تَنَالُهُ حَتَّىٰ يَدَعَ العَجَلَةَ .

٢ـ الإِلْحَاحُ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ الإِلْحَاحُ ، وَالإِلْحَاحُ لاَ يَصْلُحُ وَلاَ يَجْمُلُ إِلَّا مَعَ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ .

قَالَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البَقَرَةُ : ٢٧٣] .

(١) « رَوْضُ الأَخْيَارِ المُنْتَخَبُ مِنْ رَبِيْعِ الأَبْرَارِ » لابْنِ قَاسِمِ الأَمَاسِيِّ (١٩١) .
(٢) « أَحْسَنَ مَا سَمِعْتُ » (٨٦) .

وَمَعْنَىٰ أَلْحَفَ أَيْ دَعَا حَتَّىٰ غَطَّىٰ نَفْسَهُ بِذَلِكَ أَشْبَهُ بِاللِّحَافِ الَّذِي يُغَطِّيْ بِهِ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ » (١) .

وَالإِلْحَافُ الإِلْحَاحُ فِي السُّؤَالِ (٢)، والمَعْنَىٰ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ أَصْلاً ، أَوْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ مُلِحِّيْنَ وَمُلْحِفِيْنَ ، وَالمُرَادُ التَّنْبِيْهُ عَلَىٰ سُوءِ طَرِيْقَةِ مَنْ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، ، وَمِثَالُهُ إِذَا حَضَرَ عِنْدَكَ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَاقِلٌ وَقُوْرٌ قَلِيْلُ الكَلَامِ، وَالآخَرُ طَيَّاشٌ مِهْذَارٌ سَفِيْهٌ ، فَإِذَا أَردتَ أَنْ تَمْدَحَ أَحَدَهُمَا وَتُعَرِّضَ بِذَمِّ الآخَرِ قُلْتَ : فُلَانٌ رَجُلٌ عَاقِلٌ وَقُوْرٌ لاَ يَخُوضُ فِي التُّرَّهَاتِ وَلاَ يَشْرَعُ فِي السَّفَاهَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ غَرَضُكَ مِنْ قَوْلِكَ : لاَ يَخُوضُ فِي التُّرَّهَاتِ وَصْفَهُ بِذَلِكَ؛ لأَنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الأَوْصَافِ الحَسَنَةِ يُغْنِي عَنْ ذَلِكَ ، بَلْ غَرَضُكَ التَّنْبِيْهُ عَلَىٰ مَذَمَّةِ الثَّانِي .

فَالأَمْرُ هُنَا كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ -تَعَالَىٰ- : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ الغَرَضُ مِنْهُ بَيَانُ مُبَايَنَةِ أَحَدِ الجِنْسَيْنِ عَنِ الآخَرِ فِي اسْتِجَابِ المَدْحِ والتَّعْظِيْم» (٣).

أَلاَمَا أَقْبَحَ الإِلْحَاحَ ؛ لَوْ كَانَ ثَوْبًا لَنْ يَلْبِسَهُ غَيْرُ اللِّئَامِ .

---

(١) « تَهْذِيْبُ اللُّغَة » (٥/ ٧٠) .

(٢) « الحُورِ العِيْـنِ » (٤٩) .

(٣) « تَفْسِيْـرُ الرَّازِيّ » (٧/ ٨٧) ، مَعَ التَّنْبِيْهِ إِلَـىٰ أَنَّ الرَّازِي -سَامَحَهُ اللهُ- أَشْعَرِيٌّ يُسْتَفَادُ مِنْهُ وَيُحْتَرَزُ مِنْ أَشْعَرِيْته سِيَّمَا فِي تَفْسِيْـرِهِ .

قَالَ حَكِيْمٌ : لاَ يُكْثِرَنَّ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَخِيْهِ المَسْأَلَةَ ؛ فَإِنَّ العِجْلَ إِذَا أَفْرَطَ فِي مَصِّ أُمِّهِ نَطَحَتْهُ وَنَحَّتْهُ .

قَالَ بَشَّارُ : وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ .

وَوَقَعَ بَعْضُ الكِبَارِ فِي قِصَّةِ مُلِحٍّ مُكْثِرٍ لِلسُّؤَالِ ، فَقَالَ : دَعْ هَذَا الضَّرْعَ يَدِرَّ لِغَيْرِكَ كَمَا دَرَّ لَكَ .

وَقَالُوا : اطْلُبُوا الحَاجَاتِ بِعِزَّةِ النَّفْسِ فَإِنَّ بِيَدِ اللهِ قَضَاءَهَا .

وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي الإِحْسَانِ يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِهَوَانٍ :

إِذَا أَنَا نَالَتْنِي فَوَاضِلُ مُفْضِلٍ ... فَأَهْلٌ بِهَا مَا لَمْ تَكُنْ بِهَوَانِ
فَأَمَّا إِذَا كَانَ الهَوَانُ قَرِيْنَهَا ... فَبُعْدًا لَهَا مَا يَنْقَضِي لِأَوَانِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَلْتَذُّ شَهْدًا بِعَلْقَمٍ ... أَبَتْ لَهَوَاتِي ذَاكَ وَالشَّفَتَانِ
أُرِيْدُ مَكَانًا مِنْ كَرِيْمٍ يَصُونُنِي ... وَإِلَّا فَلِي رِزْقٌ بِكُلِّ مَكَانِ [(١)]

وَتَأَمَّلْ إِلَىٰ عِزَّةِ السَّلَفِ –رَحِمَهُمُ اللهُ– وَكَيْفَ يَعْجَزُونَ عَنِ المَسْأَلَةِ بِدُونِ إِلْحَاحٍ ، فَكَيْفَ يَرْضَونَ لِأَنْفُسِهِمْ الإِلْحَاحَ ، فَهَذَا سَعِيْدُ بْنُ العَاصِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– يَقُولُ : مَوْطِنَانِ لاَ أَعْتَذِرُ مِنَ العَيِّ فِيْهِمَا : إِذَا سَأَلْتُ حَاجَةً لِنَفْسِي، وَإِذَا كَلَّمْتُ جَاهِلاً .

(١) « الذَّخَائِرُ والعَبْقَرِيَّات » (١/ ١٣٨) .

وَسَارَ الفَضْلُ بْنُ الرَّبِيْعِ -الَّذِي اسْتُوزِرَ لِبَعْضِ الخُلَفَاءِ- إِلَىٰ أَبِي عَبَّادٍ فِي نَكْبَتِهِ يَسْأَلُهُ حَاجَةً فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ، فَقَالَ أَبُو عَبَّادٍ: بِهَذَا اللِّسَانِ خَدَمْتَ خَلِيْفَتَيْنِ! -أَيْ كَيْفَ تَرْتِجُ عَلَيْكَ وَقَدْ خَدَمْتَ بِهَا خَلِيْفَتَيْنِ مِنَ الخُلَفَاءِ- فَقَالَ الفَضْلُ: إِنَّا تَعَوَّدْنَا أَنْ نُسْأَلَ وَلَا نَسْأَلَ [١].

وَقَالَ العَتَابِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

«إِنْ طَلَبْتَ حَاجَةً إِلَىٰ ذِي سُلْطَانٍ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ إِلَيْهِ، وَإِيَّاكَ وَالإِلْحَاحَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ إِلْحَاحَكَ، يَكْلُمُ عِرْضَكَ، وَيُرِيْقُ مَاءَ وَجْهِكَ، فَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ عِوَضًا لِمَا يَأْخُذُ مِنْكَ، وَلَعَلَّ الإِلْحَاحَ يَجْمَعُ عَلَيْكَ إِخْلَاقَ مَاءِ الوَجْهِ، وَحِرْمَانَ النَّجَاحِ فَإِنَّهُ رُبَّمَا مَلَّ المَطْلُوبُ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَسْتَخِفَّ الطَّالِبُ» [٢].

وَحَتَّىٰ الوَعْدُ قَدْ يَعِدُكَ أَخُوكَ وَعْدًا فَلَا تُلِحَّ عَلَيْهِ فِيْهِ.

قَالَ الحَسَنُ بْنُ هَانِئٍ:

تَأَنَّ مَوَاعِيْدَ الكِرَامِ فَرُبَّمَا ... حَمَلْتَ مِنَ الإِلْحَاحِ سَمْحًا عَلَىٰ بُخْلِ [٣]

---

(١) «المَرْجِعُ السَّابِقُ» (١/ ١٣٨).

(٢) «المَرْجِعُ السَّابِقُ» (١/ ١٤١).

(٣) «العَقْدُ الفَرِيْدُ» (١/ ٢١٣).

قَالَ آخَرُ:

إِنْ كُنْتَ طَالِبَ حَاجَةٍ فَتَجَمَّلِ فِيْهَا بِأَحْسَنَ مَا طَلَبْتَ وَأَجْمِلِ
إِنَّ الكَرِيْمَ أَخَا المُروءَةِ والنُّهَى مَنْ لَيْسَ فِي حَاجَاتِهِ بِمُثَقِّلِ (١)

قَالَ آخَرُ وَأَحْسَنَ:

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَىٰ كَرِيْمٍ حَاجَةً فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيْكَ والتَّسْلِيْمُ
فَإِذَا رَآكَ مُسَلِّمًا عَرَفَ الَّذِي حَمَّلْتَهُ فَكَأَنَّهُ مَلْزُومُ (٢)

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ بْنُ مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللهُ-:

لاَ تَقْضِ حَاجَاتِ المُلِحِّ جَمِيْعَهَا فَيَظُنَّ أَنَّكَ جِئْتَ بِالإِلْحَاحِ
عَلِّمْهُ أَخْلَاقَ السُّؤَالِ وَقُلْ لَهُ إِنَّ الكَرِيْمَ يَجُودُ بِالإِلْمَاحِ

٣ــ الطَيْشُ :

وَمِنْ مَوانِعِ السَّكِيْنَةِ الطَيْشُ وَهُوَ الزَّنُ وَخِفَّةُ العَقْلِ، والحِلْمُ يَتَوَسَّطُ الطَّيْشَ وَبَلَادَةِ الإِحْسَاسِ، وَيَكُونُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الأَخْلَاقِ، كَمَا يَكُونُ فِي الكَلَامِ كَمَا قِيْلَ، وَالطَيْشُ فِي الكَلَامِ يُتَرْجِمُ عَنْ خِفَّةِ الأَحْلَامِ» (٣).

---

(١) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (١/ ٢١٣).
(٢) « غُرَرُ الخَصَائِصِ الوَاضِحَةِ » (٢٢٩).
(٣) « أَطْوَاقُ الذَّهَبِ » لِلزَمَخْشَرِيِّ (٨٩).

وَالطَّائِشُ يَنْسَاقُ بِسُهُولَةٍ وَرَاءَ الاسْتِفْزَازَاتِ، وَيَرْضَخُ لِلاسْتِخْفَافَاتِ وَيَجْرِي وَرَاءَ الشَّائِعَاتِ، وَمَنْ تَعَوَّدَ الطَّيْشَ فَإِنَّهُ يَحْقِدُ بِأَوَاقَى مَا يَطْرِقُهُ ، كَكَلْبٍ يَسْمَعُ صَوْتًا فَيَنْبَحُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ مَا هُوَ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الحِلْمِ خَيْـرَ مَغَبَّةٍ وَلاَمِثْلَ عُقْبَى الطَّيْشِ والجَهْلِ وَالعِلْمِ(١)

قَالَ آخَرُ :

عَلَيْكُمْ إِذَا طَاشَ الرِّجَالُ سَكِينَةٌ تُزَلْزِلُ رَضْوَى أَوْ تَبِيْدُ يَلَمْلَمَا (٢)

٤ـ المُبَالَغَةُ فِي الضَّحِكِ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ المُبَالَغَةُ فِي الضَّحِكِ وَالإِفْرَاطُ فِيْهِ ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **وَأَقِلَّ مِنَ الضَّحِكِ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيْتُ القَلْبَ** » (٣) .

والحِكْمَةُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ القَلْبَ مَعْدِنُ السَّكِيْنَةِ، فَإِذَا مَاتَ تَرَحَّلَتْ عَنْهُ.

وَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ : « **مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ**

---

(١) « لُبَابِ الآدَابِ » لِأُسَامَةَ بْنِ مُنْقِذٍ (٣٨٣) .
(٢) « دِيْوَانُ الأَخْرَسِ » (٦٧١) .
(٣) (حَسَنٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيِّ (٢٣٠٥)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ » (٧٤٣٥) ، «والصَّحِيْحَة» (٥٠٥) .

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-مُسْتَجْمِعًا (١) قَطُّ ضَاحِكًا ، حَتَّىٰ أَرَىٰ مِنْهُ لَهَوَاتِهِ (٢) ، وَإِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ » (٣) .

قُلْتُ : هَذَا حَدِيْثٌ ذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- تَحْتَ بَابِ الوَقَارِ وَالسَّكِيْنَةِ فِي كِتَابِهِ «رِيَاضُ الصَّالِحِيْنَ» ، وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِيْنَ-رَحِمَهُ اللهُ-مُعَلِّقًا: «يَعْنِي لَيْسَ يَضْحَكُ ضَحِكًا فَاحِشًا يُقَهْقِهُ ، يَفْتَحُ فَمَهُ حَتَّىٰ تَبْدُوَ لَهَاتُهُ ، وَلَكِنَّهُ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-كَانَ يَتَبَسَّمُ أَوْ يَضْحَكُ حَتَّىٰ تَبْدُوَ نَوَاجِذُهُ أَوْ تَبْدُوَ أَنْيَابُهُ ، وَهَذَا مِنْ وَقَارِ النَّبِيِّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلِهَذَا تَجِدُ الرَّجُلَ كَثِيْرَ الكَرْكَرَةِ-الَّذِي إِذَا ضَحِكَ قَهْقَهَ وَفَتَحَ فَاهُ-يَكُونُ هَيِّنًا عِنْدَ النَّاسِ ، وَضِيْعًا عِنْدَهُمْ ، لَيْسَ لَهُ وَقَارٌ ، وَأَمَّا الَّذِي يُكْثِرُ التَّبَسُّمَ فِي مَحَلِّهِ ، فَإِنَّهُ مَحْبُوبٌ ، تَنْشَرِحُ بِرُؤْيَتِهِ الصُّدُورُ ، وَتَطْمَئِنُّ بِهِ القُلُوبُ » (٤).

---

(١) مُسْتَجْمِعًا : مُبَالِغًا فِي الضَّحِكِ لَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا .

(٢) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ-رَحِمَهُ اللهُ-: « اللَّهَوَاتُ : جَمْعُ لَهَاةٍ ، وَهِيَ اللَحْمَةُ الَّتِي بِأَعْلَىٰ الْحُنْجُرَةِ مِنْ أَقْصَىٰ الفَمِ ، يَعْنِي : مَا يَكُونُ ضَاحِكًا تَامًّا بِكُلِّيَّتِهِ عَلَىٰ الضَّحِكِ ، بِحَيْثُ تَبْدُو اللَّهَاةُ الَّتِي فِي آخِرِ الفَمِ » .
وَقَالَ أَيْضًا -رَحِمَهُ اللهُ- : « بَعْدَ أَنْ اسْتَعْرَضَ عَدَدًا مِنَ الأَحَادِيْثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالتَّبَسُّمِ وَ الضَّحِكِ ؛ وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ مَجْمُوعَةِ الأَحَادِيْثِ أَنَّهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَرُبَّمَا زَادَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَضَحِكَ ، وَالْمَكْرُوهُ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ الإِكْثَارُ مِنْهُ أَوْ الإِفْرَاطُ ، لِأَنَّهُ يُذْهِبُ الوَقَارَ» .

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٤٨٢٨) ، وَمُسْلِمٌ (٨٩٩) .

(٤) « شَرْحُ رِيَاضِ الصَّالِحِيْنَ » (٤/ ٩٢) .

وَقَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- « مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ ، قَلَّتْ هَيْبَتُهُ ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ » (١).

وَقَالَ المَاوَرْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

« أَمَّا الضَّحِكُ فَإِنَّ اعْتِيَادَهُ شَاغِلٌ عَنْ النَّظَرِ فِي الأُمُورِ المُهِمَّةِ ، مُذْهِبٌ عَنِ الفِكْرِ فِي النَّوَائِبِ (٢) المُلِمَّةِ ، وَلَيْسَ لِمَنْ أَكْثَرَ هَيْبَةٌ وَلاَ وَقَارٌ ، وَلَا لِمَنْ وُصِمَ بِهِ خَطَرٌ (٣) وَلَا مِقْدَارٌ » (٤) . وَطُلَّابُ العِلْمِ أَوْلَىٰ أَنْ يَجْتَنِبُوا المُبَالَغَةَ فِي الضَّحِكِ وَالإِفْرَاطَ فِيْهِ .

قَالَ الأَوْزَاعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: « كُنَّا نَمْزَحُ وَنَضْحَكُ فَلَمَّا صِرْنَا يُقْتَدَىٰ بِنَا خَشِيْتُ أَنْ لاَ يَسَعَنَا التَّبَسُّمُ » (٥) .

قَالَ الوَلِيْدُ بْنُ يَزِيْدٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: « مَا رَأَيْتُ الأَوْزَاعِيَّ ضَاحِكًا حَتَّىٰ يُقَهْقِهَ قَطُّ » (٦) .

وَالنَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَضْحَكُ لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هَدْيُهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الإِكْثَارَ مِنْهُ ، بَلْ كَانَ وَقُورًا هَادِئًا سَكِيْنًا ، كَمَا وَصَفَهُ جَابِرُ بْنُ

---

(١) «المَنْهَجُ المَسْلُوكُ فِي سِيَاسَةِ المُلُوكِ » لِلشِّـرَازِيِّ (٤٥٠) .
(٢) النَّوَائِبُ : جَمْعُ نَائِبَةٍ ، وَهِيَ المُصِيْبَةُ وَالنَّازِلَةُ .
(٣) الخَطَرُ : بِفَتْحَتَيْنِ : القَدْرُ والمَنْزِلَةُ .
(٤) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّيْنِ » (٣١٣) .
(٥) «الآدَابُ الشَّـرْعِيَّةُ » (٢/ ٤٤) .
(٦) « الجَرْحُ والتَّعْدِيْلُ» (١/ ٢١٧) .

سَمُرَةَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَال: « **إِنَّ النَّبِيَّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-كَانَ طَوِيْلَ الصَّمْتِ ، قَلِيْلَ الضَّحِكِ** » [١] .

والتَّبَسُّمُ غَيْرَ الضَّحِكِ ، إِذْ هُوَ انْفِرَاجُ الفَمِ بِلاَ صَوْتٍ ، وَهُوَ سُنَّةٌ ، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ جُزْءٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَال: « **مَا كَانَ ضَحِكُ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-إِلَّا تَبَسُّماً** » [٢] .

وَلاَ مَانِعَ مِنَ الإِفْرَاطِ فِي التَّبَسُّمِ وَالمُبَالَغَةُ فِيْهِ مَا دَامَ فِي مَحَلِّهِ سِيَّمَا إِذَا كَانَ بِسَكِيْنَةٍ وَوَقَارٍ ؛ لِأَنَّهُ عِطْرُ الأَخْلاقِ وَنَفْحَةٌ مِنْ نَفَحَاتِهَا .

وَكَانَتْ البَسْمَةُ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ إِلَىٰ قَلْبِ النَّبِيِّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ جُزْءٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَال: « **مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّماً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-** » [٣] .

عَنْ جَرِيْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ البَجَلِيِّ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَال: « **مَا رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَّا وَتَبَسَّمَ فِي وَجْهِي** » [٤].

---

(١) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٥/ ٨٦-٨٨)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ » (٤٨٢٢) .

(٢) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٦٤٢)،وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-فِي«صَحِيْحِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٨٨١) .

(٣) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٦٤١)،وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-فِي«صَحِيْحِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٨٨٠) .

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٠٨٩) ، ومُسْلِمٌ (٢٤٧٥) .

بَلْ كَانَتْ البَسْمَةُ مِنْ ضِمْنِ وَصَايَاهُ لِلنَّاسِ حَتَّىٰ رَفَعَهَا إِلَىٰ مُسْتَوَىٰ الصَّدَقَةِ ، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيْكَ لَكَ صَدَقَةٌ** » (١) .

وَجعَلَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِقَاءَ النَّاسِ بِوَجْهٍ طَلِيْقٍ أَيْ بَاسِم مُتَهَلِّلٍ بِالبِشْرِ وَالتِّرْحَابِ مِنْ قَبِيْلِ المَعْرُوفِ ، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ** » (٢) .

تَبَسَّمْ فَقَدْ طَالَتْ عَلَىٰ الوُرْقِ (٣) غُنْدَةٌ ... وَفِي وَجْهِكَ الوَضَّاحِ فَجْرُ الدَّيَاجِرِ (٤)
تَبَسَّمْ وَزَوِّدْنَا القَلِيْلَ فَإِنَّنَا ... عَلَىٰ سَفَرٍ، يَا نِعْمَ زَادُ المُسَافِرِ
طَوَىٰ الحُبُّ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ مَدَىً ... فَنَحْنُ قَرِيْنَا مَوْطِنٍ مُتَجَاوِرِ
وَيُعْجِبُنِي أَنْ لاَ نَرَىٰ فِيْكَ مُعْجَبًا ... مُدِلًّا عَلَىٰ الأَيَّامِ إِدْلاَلَ ظَافِرِ (٥)
بَشُوشًا تَكَادُ العَيْنُ تَلْمَحُ قَلْبَهُ ... وَتَسْرُدُ (٦) فِي نَجْوَاهُ نَظْمَ السَّرَائِرِ

---

(١) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (١٩٥٦)،وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ» (٢٩٠٨) .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٦٢٦) .

(٣) الوُرْق: جَمْعُ وَرْقَاءُ وَهِيَ الحَمَامَةُ فِي لَوْنِهَا بَيَاضٌ إِلَىٰ سَوَادٍ .

(٤) الدَّيَاجِرُ :-جَمْعُ دَيْجُور- وَهُوَ الظَّلاَمُ .

(٥) إِدْلاَلُ ظَافِرٍ : وُثُوقُ مُنْتَصِرٍ .

(٦) تَسْرُدُ : تَنْسِجُ .

وَتَضْحَكُ وَالأَتْرَاحُ [١] حَوْلَكَ جَمَّةٌ   تَخَافُكَ خَوْفَ الجِنِّ رَجْمَ الزَّوَاهِرِ [٢][٣]

٥ـ كَثْرَةُ الهَزَلِ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِينَةِ كَثْرَةُ الهَزَلِ ، بَلْ السَّكِينَةُ قَرِينَةُ الجَدِّ .

فَالمُسْلِمُ بِنَاءُ أَمْرِهِ عَلَىٰ الجَدِّ فِي الأُمُورِ والعُزُوفِ عَنِ اللَّهْوِ واللَّعْبِ والهَزَلِ وَالسَّفَاسِفِ والبُعْدِ عَنْ قَوَاتِلِ الأَوْقَاتِ إِلَّا فِي حُدُودِ المُلَحِ اليَسِيْرَةِ الَّتِي تُرَوِّحُ عَنِ النَّفْسِ ضِمْنَ لَمَحَاتٍ خَاطِفَةٍ ، وَتُخَفِّفُ عَنْهُ ثِقَلَ العَمَلِ الجَادِّ المُثْمِرِ [٤] .

وَمِنْ أَمْثَالِ العَرَبِ : « الانْقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ لِلعَدَاوَةِ ، وَالإِفْرَاطُ فِي الأُنْسِ مَكْسَبَةٌ لِقُرَنَاءِ السُّوءِ » [٥] .

أَلَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ وَيْحَكَ مَا الَّذِي   أَصَابَكَ حَتَّىٰ تَتْرُكَ الجِدَّ لِلْهَزْلِ
وَمَا الجِدُّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ هُدَىً   وَمَا الهَزْلُ إِلَّا أَنْ تَبِيْتَ عَلَىٰ ذُلِّ
وَمَا الذُّلُّ إِلّا أَنْ يُنَقِّلَ فَاضِلاً   شَرِيْفًا عَظِيْمَ المَكْرُمَاتِ إِلَىٰ نَذْلِ [٦]

---

(١) الأَتْرَاحُ : الأَحْزَانُ .
(٢) الزَّوَاهِرُ: النُّجُومُ .
(٣) الأَعْمَالُ الكَامِلَةُ للعَقَّاد (١/ ٤٠-٤١) .
(٤) « أَجْنِحَةُ المَكْرِ الثَّلَاثَةُ » (٤٢٨) .
(٥) «الأَمْثَالُ » لِأَبِي عُبَيْدٍ (٢٢٠) .
(٦) «دِيْوَانُ : أَحْمَدُ سَحْنُونُ » (٢/ ٦٥) .

٦ـ التَّعَرُّضُ لِلسَّفَلَةِ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ التَّعَرُّضُ لِلسَّفَلَةِ وَالسُّفَهَاءِ وَمُجَارَاتُهُمْ وَالتَّمَادِي فِي مُضَاحَكَتِهِمْ وَمُمَازَحَتِهِمْ، وَمُؤَاكَلَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ ، وَالسَّكِيْنَةَ فِي تَرْكِ ذَلِكَ كُلِّهِ لِئَلَّا يَسْمَعَ مَا يُؤْذِيْهِ فَيَضْطَرَّ إِلَىٰ مُجَارَاتِهِمْ فِي أَخْلاقِهِمْ وَطَيْشِهِمِ ، كَمَا قَيْلَ:

إِذَا جَارَيْتَ فِي خُلُقٍ دَنِيْئًا فَأَنْتَ وَمَنْ تُجَارِيْهِ سَوَاءُ[1]

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَادِ -حَفِظَهُ اللَّهُ- :

لاَزِمْ مُصَاحَبَةَ الكِرَامِ وَدَعْكَ مِنْ أَهْلِ السَّفَالَةْ
فَالنَّاسُ تَحْكُمُ بِالرَّفِيْقِ عَلَىٰ المُرَافِقِ لاَ مَحَالَةْ
وَالخِلُّ يُوزَنُ بِالخَلِيْلِ وَذَاكَ مِيْزَانُ العَدَالَةْ
إِنَّ السَّكِيْنَةَ وَالوَقَارَ بِتَرْكِ أَسْبَابِ النَّذَالَةْ

٧ـ الجِدَالُ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ الجِدَالُ ؛ لِأَنَّهُ يُذْكِيْ العَدَاوَةَ وَيُوْرِثُ الشِّقَاقَ وَيَقُودُ إِلَىٰ الكَذِبِ ، وَيَدْعُو إِلَىٰ التَّشَفِّيْ مِنَ الآخَرِيْنَ ، فَإِذَا تَجَنَّبَهُ المَرْءُ سَلِمَ مِنَ اللُّجَاجِ ، وَحَافَظَ عَلَىٰ صَفَاءِ قَلْبِهِ ، وَأَمِنَ مِنْ كَشْفِ عَيْبِهِ ، وَإِطْلاَقِ لِسَانِهِ

---

(١) « دِيْوَانُ أَبِي تَمَّامٍ » (٤/ ٢٩٦) .

فِي بَذِئِ الأَلْفَاظِ وَسَاقِطِ القَوْلِ .

لَكِنْ إِنْ اضْطُرَّ إِلَىٰ الجِدَال فَلْيَكُنْ جِدَالاً هَادِئًا يُرَادُ بِهِ الوُصُولُ إِلَىٰ الحَقِّ وَلْيَكُنْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَأَرْفَقُ .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النَّحْلُ :١٢٥] .

أَمَّا إِذَا لَجَّ الخَصْمُ فِي الجِدَالِ ، وَعَلاَ صَوْتُهُ فِي المَجْلِسِ فَإِنَّ السُّكُوتَ أَوْلَى، وَإِنَّ أَفْضَلَ طَرِيْقَةٍ لِكَسْبِ الجِدَالِ هُوَ تَرْكُهُ (١) .

فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **أَنَا زَعِيْمُ بَيْتٍ فِي رَبَضِ (٢) الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ حَقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا ، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَىٰ الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ** » (٣) .

فَـإِيَّـاكَ اللُّجُوجَ وَمَـنْ يُرَائِي ... بِـأَنِّي قَـدْ غَلَبْتُ وَمَـنْ يُفَاخِرْ
فَـإِنَّ الـشَّرَّ فِي جَـنَـبَـاتِ هَـذَا ... يُـمَـنَّـىٰ بِالتَّقَاطُعِ والـتَّـدَابُـرْ

---

(١) « سُوءُ الخُلُقِ » لِلحَمْدِ (١٢٠) .
(٢) رَبَض الجَنَّة : أَدْنَاهَا .
(٣) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدُ (٤٨٠٠) وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ أَبِي دَاوُدُ» (٤٠١٥).

٨ـ الشِّقَاقُ :

وَمِنْ مَوَانِع السَّكِيْنَةِ الشِّقَاقُ ، وَالشِّقَاقُ -بالكَسْرِ- الخِلافُ ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا فِي شِقِّ صَاحِبِهِ أَيْ نَاحِيَتِهِ ، وَمِنَ المَشَقَّةِ ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَشُقُّ عَلَيْهِ مُتَابَعَتُهُ صَاحِبِهِ ، أَوْ لِأَنَّهُ يَأْتِي بِمَا يَشُقُّ عَلَىٰ صَاحِبِهِ (١) .

وَهُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثِمَارِ الجِدَالِ ، فَمَتَىٰ اشْتَدَّتْ خُصُومَةُ المُتَجَادِلَيْنِ وَآثَرَ كُلُّ مِنْهُمَا الغَلَبَةَ بَدَلَ الحِرْصِ عَلَىٰ ظُهُورِ الحَقِّ وَوُضُوحِ الصَّوَابِ ، وَتَعَذَّرَ أَنْ يَقُومَ بَيْنَهُمَا تَفَاهُمٌ أَوْ اتِّفَاقٌ سُمِّيَتْ تِلْكَ الحَالَةُ بِـ « الشِّقَاقِ » .

وَفِي التَّنْزِيْلِ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ [النِّسَاءُ:٣٥] ، أَيْ : خِلَافًا حَادًّا يَعْقُبُهُ نِزَاعٌ يَجْعَلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي شِقٍّ .

كَمَا أَنَّ الشِّقَاقَ يَقُودُ إِلَىٰ الكَذِبَ ، وَيَدْعُو إِلَىٰ التَّشَفِّي مِنَ الآخَرِيْنَ ، فَإِذَا تَجَنَّبَهُ المَرْءُ سَلِمَ مِنَ اللَّجَاجِ وَحَافَظَ عَلَىٰ وَقَارِهِ وَسَكِيْنَتِهِ وَأَدَبِهِ وَصَفَاءِ قَلْبِهِ، وَإِطْلَاقِ لِسَانِهِ فِي بَذِئِ الأَلْفَاظِ وَسَاقِطِ القَوْلِ ، واللهُ المُوَفِّقُ .

٩ ـ الكِبْرُ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ الكِبْرُ فَهُوَ قَرِيْنُ الطَّيْشِ ، كَمَا التَّوَاضُعُ قَرِيْنُ السَّكِيْنَةِ والخُشُوعِ .

وَقَـدْ جَـاءَ تَعْرِيْفُ الكِبْرِ فِي حَدِيْثِ ابْنِ مَسْعُـودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -

(١) « التَّوَقُّفُ عَلَـىٰ مهمَّاتِ التَّعْرِيْفِ » (٢٠٦) .

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ** » (١) .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« فَسَّرَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْكِبْرَ بِضِدِّهِ ، فَقَالَ : « **الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمْصُ النَّاسِ** » (٢) ، فَبَطَرُ الْحَقِّ: رَدُّهُ وَجَحْدُهُ ، وَالدَّفْعُ فِي صَدْرِهِ ، كَدَفْعِ الصَّائِلِ ، وَغَمْصُ النَّاسِ: احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ ، وَمَتَىٰ احْتَقَرَهُمْ وَازْدَرَاهُمْ: دَفَعَ حُقُوقَهُمْ ، وَجَحَدَهَا ، وَاسْتَهَانَ بِهَا » (٣) .

فَاحْذَرْ -أَخِي- الْكِبْرَ وَمُجَالَسَةَ أَهْلِهِ فَإِنَّ الطَّبْعَ لِصٌّ .

حَذَّرْتُكَ الكِبْرَ لاَ يَغْشَاكَ مِيْسَمُهُ ... فَإِنَّهُ مَلْبَسٌ نَازَعَتَهُ اللهَ (٤)

١٠ ـ الإِكْثَارُ مِنَ الحَرَكَاتِ وَالتَّلَفُّتِ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ الإِكْثَارُ مِنَ الحَرَكَاتِ وَالتَّلَفُّتِ ، فَعَلَىٰ المَرْءِ أَنْ يَلْزَمَ الهُدُوءَ وَسُكُونَ الأَطْرَافِ وَقِلَّةَ الحَرَكَةِ فِي المَجَالِسِ ، وَعِنْدَ الغَضَبِ مُفَارِقًا الطَّيْشَ مُجَانِبًا لِلعَبَثِ ، واللهُ المُوَفِّقُ .

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١) .

(٢) وَغَمْصُ: رِوَايَةٌ فِي الحَدِيْثِ وَهِيَ بِمَعْنَىٰ كَلِمَةِ (وَغَمْطُ) انْظُرْ: «مَشَارِقُ الأَنْوَارِ» (٢/ ١٣٥).

(٣) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (٢/ ٣١٨) .

(٤) « دِيْوَانُ أَبِي نَوَّاس » (١٦٦) وَهُوَ عِنْدَهُ بِلَفْظٍ:

حَذَّرْتُكَ الكِبْرَ لاَ يَعْلَقْكَ مِيْسَمُهُ ... فَإِنَّهُ مَلْبَسٌ نَازَعَتَهُ اللهَ

قَالَ الشَّاعِرُ :

هَلِمُّوا اعْجَبُوا مِنْ أَنْبَهِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ذَرِيعَتُهُ فِيمَا يُحَاوِلُ خَامِلُ
أَيَرْضَىٰ بِضَعْفٍ فِي رِسَائِلِهِ امْرُؤٌ لَهُ حَرَكَاتٌ كُلُّهُنَّ رَسَائِلُ (١)

وقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَاد -حَفِظَهُ اللهُ- :

كُنْ كَالجِبَالِ الشَّامِخَاتِ رَزَانَةً إِنَّ الوَقَارَ عَلَىٰ العُقُولِ دَلِيْلُ
إِنَّ الخَفِيْفَ لِخِفَّةٍ فِي عَقْلِهِ تَقْتَادُهُ النَّسَمَاتُ حَيْثُ تَمِيْلُ

١١ـ الكَذِبُ :

وَمِنْ مَوانعِ السَّكِيْنَةِ الكَذِبُ ؛ فَالكَذِبُ قَرِيْنُ الرِّيْبَةِ والطَّيْشِ ، والصِّدْقُ قَرِيْنُ السَّكِيْنَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ .

فَعَنْ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ -رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **«دَعْ مَا يُرِيْبُكَ إِلَىٰ مَا لَا يُرِيْبُكَ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِيْنَةٌ وَالكَذِبَ رِيْبَةٌ »** (٢).

أَيْ أَنَّ الصِّدْقَ يَطْمِئنُّ إِلَيْهِ قَلْبُ السَّامعِ وَيَجِدُ عِنْدَهُ سُكُونًا إِلَيْه ، وَالكَذِبُ يُوجِبُ لَهُ اضْطِرَابًا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **« البِرُّ مَا اطْمَأَنَّ**

(١) « دِيْوَانُ أَبِي تَمَّام » (٨٣٩) .
(٢) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٧٢٤) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٥١٨)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ » (٣٣٧٨) .

إِلَيْهِ الْقَلْبُ »[١] ، أَيْ : سَكَنَ إِلَيْهِ وَزَالَ عَنْهُ اضْطِرَابُهُ وَقَلَقُهُ .

لاَ شَيْءَ فَوْقَ أَدِيْمِ الأَرْضِ يُعْجِبُنِي ... كَالصِّدْقِ بَيْنَ الوَرَىٰ فِي القَوْلِ والعَمَلِ
وَلَيْسَ شَيْءٌ -لَعَمْرُ الحَقِّ- يُؤْلِمُنِي ... مِثْلُ النِّفَاقِ وَمِثْلُ الكِذْبِ فِي الرَّجُلِ[٢]

١٢ـ بَذَاءَةُ اللِّسَانِ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ بَذَاءَةُ اللِّسَانِ والتَّفَحُّشُ فِي القَوْلِ ، فَذَلِكَ خِلافُ السَّكِيْنَةِ بَلْ السَّكِيْنَةُ التَّنَزُّهُ عَنْ الفُحْشِ والبَذَاءِ ، فَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعْانِ ، وَلاَ اللَّعْانِ وَلاَ الفَاحِشِ البَذِيءِ** »[٣] .

وَعَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **مَا كَانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ ، وَمَا كَان الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ** »[٤] .

قَالَ الطَّيِّبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

« يَعْنِي النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِهَذَيْنِ إِلَىٰ أَنَّ الأَخْلاَقَ الرَّذِلَةَ مُفْتَاحُ

---

(١) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٨٠٠١) ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي « صَحِيْحِ الجَامِعِ » (٢٨٨١) .

(٢) « دِيْوَانُ أَحْمَد سَحْنُون » (١/ ١٣٦) .

(٣) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/ ٤٠٤) ، والبُخَارِيُّ فِي «الأَدَبِ المُفْرَد» (٣٣٢) ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الأَدَبِ المُفْرَد» » (٢٣٧) .

(٤) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣/ ١٦٥) ، والبُخَارِيُّ فِي «الأَدَبِ المُفْرَد» (٦٠١) ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الأَدَبِ المُفْرَد» » (٤٦٩) .

كُلِّ شَرٍّ ، بَلْ هِيَ الشَّرُّ كُلُّهُ ، وَالأَخْلاقُ الحَسَنَةُ السُّنِيَّةِ مُفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ ، بَلْ هِيَ الخَيْرُ كُلُّهُ »(١).

وَلِلّهِ دَرُّ القَائِلِ :

وَأَنِّي لَتَنْهَانِي خَلَائِقُ أَرْبَعٌ عَنِ الفَحْشِ فِيْهَا لِلكَرِيْمِ رَوَادِعُ
حَيَاءٌ وَإِسْلَامٌ وَشَيْبٌ وَعِفَّةٌ وَمَا المَرْءُ إِلَّا مَا حَبَتْهُ الطَّبَائِعُ(٢)

١٣ـ التَّرْثَرَةُ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ الثَّرْثَرَةُ ، وَالثَّرْثَرَةُ هِيَ كَثْرَةُ الكَلَامِ بِلاَ فَائِدَةٍ ، وَالثَّرْثَارُ هُوَ كَثِيْرِ الكَلام تكَلُّفًا .

فَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الخَشنِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي فِي الأَخِرَةِ ؛ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا ؛ وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الآخِرَةِ أَسْوَؤُكُمْ أَخْلاَقًا ؛ الثَّرْثَارُونَ ، المُتَفَيْهِقُونَ ، المُتَشَدِّقُونَ** »(٣) .

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« اعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عَنْ جَمِيْعِ الكَلَامِ إِلَّا كَلامًا

(١) « فَيْضُ القَدِيْرِ » (٥/ ٥٩٨) .
(٢) « أَمَالِي القَالِي » (٢/ ١٣٧) .
(٣) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤/ ١٩٣-١٩٤) ، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «الصَّحِيْحَةِ» (٧٩١) .

ظَهَرَتْ فِيْهِ المَصْلَحَةُ ، وَمَتَىٰ اسْتَوَىٰ الكَلامُ المُبَاحُ وَتَرْكُهُ فِي المَصْلَحَةِ ، فَالسُّنَّةُ الإِمْسَاكُ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَجُرُّ الكَلامُ المُبَاحُ إِلَىٰ حَرَامٍ أَوْ مَكْرُوهٍ ، وَذَلِكَ كَثِيْرٌ فِي العَادَةِ ، والسَّلامَةُ لا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ » (١) .

وَقَالَ القَاسِمِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

« إِيَّاكَ وَفُضُولَ الكَلَامِ ؛ فَإِنَّهُ يُظْهِرُ مِنْ عُيُوبِكَ مَا بَطَنَ وَيُحَرِّكُ مِنْ عَدُوِّكَ مَا سَكَنَ ؛ فَكَلامُ الإِنْسَانِ بَيَانُ فَضْلِهِ ، وَتُرْجَمَانُ عَقْلِهِ ؛ فَاقْصُرْهُ عَلَىٰ الجَمِيْلِ وَاقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَىٰ القَلِيْلِ » (٢) .

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ :

وَفِي الصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْعَيِيِّ وَإِنَّمَا ... صَحِيْفَةُ لُبِّ المَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَا (٣)

١٤ـ التَّسَرُّعُ فِي نَشْرِ الأَخْبَارِ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ التَّسَرُّعُ فِي نَشْرِ الأَخْبَارِ قَبْلَ التَّثَبُّتِ مِنْهَا وَمِنْ جَدْوَىٰ نَشْرِهَا ، وَقَدْ نَهَىٰ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ أَنْ يُحَدِّثَ المَرْءُ بِكُلِّ مَا سَمِعَ .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

---

(١) «رِيَاضُ الصَّالِحِيْن» (٣٩١) .
(٢) «جَوَامِعُ الآدَابِ» لِلقَاسِمِيِّ (٦) .
(٣) «عَيْنُ الأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ» لِعَلِيِّ بْن هذيل (١٢٨) .

وَسَلَّمَ-: « كَفَىٰ بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ »[١].

وَقَالَ الإِمَامُ مُسْلِمٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

«حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ المُثَنَّىٰ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنَ مَهْدِي يَقُولُ: «لاَ يَكُونُ الرَّجُلُ إِمَامًا يُقْتَدَىٰ بِهِ حَتَّىٰ يُمْسِكَ عَنْ بَعْضِ مَا سَمِعَ »[٢].

وَأَشَدُّ الأَخْبَارِ وَأَفْظَعُهَا (الإِشَاعَةُ) تِلْكَ الآفَةُ الَّتِي تَسْرِيْ فِي جَسَدِ الأُمَّةِ سَرَيَانَ النَّارِ فِي يَابِسِ الحَطَبِ فَتَأْكُلُ بِشَرَاهَةٍ وَتُفْسِدُ فِي لَحَظَاتٍ مَا يَفْسُدُ بِغَيْرِهَا فِي عَامٍ.

وَ الإِشَاعَةُ لَهَا سُوْقٌ رَائِجَةٌ وَبِضَاعَةٌ نَافِقَةٌ، والبَذْرَةُ الأُولَىٰ لَهَا عَدَمُ التَّثَبُّتِ، وَفِي الإِعْرَاضِ عَنْهَا وَعَدَمِ الاكْتِرَاثِ بِهَا سَبَبٌ فِي إِخْمَادِهَا.

وَقَالَ الإِمَامُ مُسْلِمٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

«... إِذْ الإِعْرَاضُ عَنِ القَوْلِ المَطْرُوحِ أَحْرَىٰ لِإِمَاتَتِهِ وَإِخْمَالِ ذِكْرِ قَائِلِهِ وَأَجْدَرُ أَنْ لاَ يَكُونَ ذَلِكَ تَنْبِيْهًا لِلجُهَّالِ عَلَيْهِ »[٣].

وَيَجْمُلُ عَدَمُ سَمَاعِ كَلاَمِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ وَتَصْدِيْقُهُ فَإِنَّ ذَلِكَ خِلافُ السَّكِيْنَةِ، فَإِنَّ السَّكِيْنَةَ هِيَ الطُّمَأْنِيْنَةُ وَتَعْنِي التَّثَبُّتَ وَالتَّرَوِّي فِي الأُمُورِ كُلِّهَا.

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥).
(٢) « مُقَدِّمَةُ صَحِيْحِ مُسْلِمٍ » (٥).
(٣) « مُقَدِّمَةُ صَحِيْحِ مُسْلِمٍ » (١/ ١٢٩).

قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« مِنَ الغَلَطِ الفَاحِشِ الخَطِرِ قَبُولُ قَوْلِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ يَبْنِي عَلَيْهِ السَّامِعُ حُبًّا وَبُغْضًا ، وَقَدْحًا وَذَمًّا ؛ فَكَمْ حَصَلَ بِهَذَا الغَلَطِ مِنْ أُمُورٍ صَارَ عَاقِبَتُهَا النَّدَامَةَ ، وَكَمْ أَشَاعَ النَّاسِ أُمُورًا لاَ حَقَائِقَ لَهَا بِالكُلِّيَةِ أَوْ لَهَا بَعْضُ الحَقِيْقَةِ فَنُمِّيَتْ بِالكَذِبِ وَالزُّوْرِ،وَخُصُوصًا مِمَّنْ عُرِفُوا بِعَدَمِ المُبَالاَةِ بِالنَّقْلِ أَوْ عُرِفَ مِنْهُمْ الهَوَىٰ ، فَالوَاجِبُ عَلَىٰ العَاقِلِ التَّثَبُّتِ والتَّحَرُّزُ، وَعَدَمُ التَّسَرُّعِ ، وَبِهَذَا يُعْرَفُ دِيْنُ المَرْءِ وَرَزَانَتُهُ وَعَقْلُهُ »[1].

وَمِنْ جَمِيْلِ مَا قِيْلَ فِي التَّثَبُّتِ وَعَدَمِ التَّسَرُّعِ :

رَأَىٰ اللَّوْمَ مَنْ كُلِّ الجِهَاتِ فَرَاعَهُ ... فَلَا تُنْكِرُوا إِعْرَاضَهُ وَامْتِنَاعَهُ
فَمَا رَاشَنَا بِالسُّوءِ إِلَّا لِسَانُهُ ... وَمَا خَرَّبَ الدُّنْيَا سِوَىٰ مَا أَشَاعَهُ[2]

١٥ــ القِيَامُ عَنْ المُتَحَدِّثِ قَبْلَ أَنْ يُكْمِلَ حَدِيْثَهُ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ القِيَامُ عَنْ المُتَحَدِّثِ قَبْلَ أَنْ يُكْمِلَ حَدِيْثَهُ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الخِفَّةِ والطَّيْشِ فَضْلاً عَنْ اسْتِجلاَبِ الضَّغِيْنَةِ وَاحْتِقَارِ المُتَحَدِّثِ إِلَّا إِذَا احْتَاجَ السَّامِعُ لِلقِيَامِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَأْذِنَ مُحَدِّثَهُ .

(١) « الرِّيَاضُ النَّاضِرَةُ» (٢٠٩) .
(٢) « نُزْهَةُ الأَبْصَارِ بِطَرَائِفِ الأَخْبَارِ وَالأَشْعَارِ» (١٩١) .

قَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: « إِذَا جَلَسَ إِلَيْكَ رَجُلٌ يَتَعَمَّدُكَ فَلَا تَقُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنَهُ »(١).

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيمِ العِمَادِ -حَفِظَهُ اللهُ-:

تَرَىٰ النَّاسَ تَغْشَاهُ تُرِيْدُ حَدِيْثَهُ ... لِأَخْلاقِهِ الفُضْلَىٰ وَحُسْنِ اسْتِمَاعِهِ

لَـهُ بَسْمَةٌ فِي كُـلِّ وَجْـهٍ حَبِيْبَةٌ ... إِلَىٰ النَّاسِ، مِنْ لُقْيَاهُ حَتَّىٰ وَدَاعِهِ

١٦ـ الغِلْظَةُ في الخِطَابِ:

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ الغِلْظَةُ فِي الخِطَابِ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عِمْرَانُ: ١٥٩]. فَالغِلْظَةُ مِنْ أَخْلاقِ جُفَاةِ الأَعْرَابِ، بَلْ مِنْ أَخْلاقِ أَهْلِ النَّارِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ، كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ** »(٢).

والعُتُلُّ هُوَ الغَلِيْظُ الجَافِي، والجَوَّاظُ هُوَ الغَلِيْظُ الفَظُّ. وَ السَّكِيْنَةُ فِي السُّكُونِ والهُدُوءِ وَطَيِّبِ الكَلَامِ.

قَالَ تَعَالَىٰ-: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ ﴾[الإِسْرَاءُ: ٥٣].

---

(١) « المُنْتَقَىٰ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ » (١٥٣).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٤٥٣٧).

وَقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البَقَرَةُ:٨٣].

وَقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحَجُّ:٢٤].

وَإِنِّي لَأَهْوَىٰ ثُمَّ لاَ أَتْبَعُ الهَوَى ... وَأُكْرِمُ خِلاَّنِي وَفِيَّ صُدُودُ
وَفِي النَّاسِ عَنْ بَعْضِ التَّضَرُّعِ غِلْظَةٌ ... وَفِي العَيْنِ عَنْ بَعْضِ البُكَاءِ جُمُودُ[1]

١٧ـ سُرْعَةُ الجَوَابِ:

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِينَةِ سُرْعَةُ الجَوَابِ، فَمَنْ يَعْجَلُ بِالجَوَابِ قَبْلَ أَنْ يُنْهِيَ السَّائِلُ كَلامَهُ، أَوْ يُجِيبُ عَلَىٰ سُؤَالٍ لَمْ يُوَجَّهُ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً فَقَدْ تَخَطَّىٰ السَّكِينَةَ إِلَىٰ الطَّيْشِ وَالرُّعُونَةِ.

قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ -رَحِمَهُ اللهُ-: «خِصْلَتَانِ لاَ تَعْدَمَانِكَ مِنَ الجَاهِلِ: كَثْرَةُ الالتِفَاتِ، وَسُرْعَةُ الجَوَابِ»[2].

وَمِمَّا يُسْتَحْسَنُ مِنْ سُرْعَةِ الجَوَابِ وَحُضُورِهِ عِنْدَ وَقْتِهِ مَا يُرْوَىٰ أَنَّ خَالِدَ ابْنَ صَفْوَانٍ لَقِيَ الفَرَزْدَقَ -وَكَانَ دَمِيمًا- وَقَدْ لَبِسَ ثِيَابًا سَرِّيَةً فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا فِرَاسٍ مَرْحَبًا بِهَذَا الوَجْهِ الَّذِي لَوْ رَآهُ صَوَاحِبُ يُوسُفَ لَمْ يُكْبِرْنَهُ وَلَمْ يُقَطِّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، فَقَالَ الفَرَزْدَقُ: وَأَهْلاً وَمَرْحَبًا بِوَجْهِكَ الَّذِي لَوْ رَأَتْهُ

(١) «الصَّدَاقَةُ وَالصَّدِيْقُ» (٢٩٠).
(٢) «أَخْبَارُ الحَمْقَىٰ وَالمُغَفَّلِيْن» (٣٥).

صَاحِبَةُ مُوسَىٰ لَمْ تَقُلْ لِأَبِيْهَا ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القَصَصُ:٢٦]. (١)

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَاد -حَفِظَهُ اللَّهُ-:

يَا صَغِيْـرِي خُذْ عَنْ أَبِيْكَ حَدِيْثًا ... حِكْمَةً تَهْـتَـدِي بِهَـا لِلصَّوابِ
قَسْوَةُ القَلْبِ فِي انْتِهَارِ يَتِيْمٍ ... أَوْ فَقِيْرٍ أَوْ غِلْظَةٍ فِي الخِطَابِ
سِمَةُ الجَهْلِ كَثْرَةٌ فِي الْتِفَاتٍ ... دُونَ شَأْنٍ أَوْ سُرْعَةٌ فِي الجَوَابِ
إِنَّـمَا العَقْلُ فِي اللِّسَانِ فَحَاذِرْ ... كُـلَّ لَفْظٍ يَـأْتِي بِغَيْرِ حِسَابِ

١٨ـ الاسْتِخْفَافُ بِحَدِيْثِ المُتَحَدِّثِ:

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ الاسْتِخْفَافُ بِحَدِيْثِ المُتَحَدِّثِ، بَلْ السَّكِيْنَةُ حُسْنُ الاسْتِمَاعِ، فَإِنْ وَجَدْتَ خَطَأً ذَكَرْتَهُ وَذَكَرْتَ الصَّوَابَ بِأَحْسَنِ عِبَارَةٍ وَأَلْطَفِ إِشَارَةٍ وَلاَ يَسْتَفِزُّكَ مُسْتَفِزٌّ مِنْ اسْتِخْفَافٍ بِحَدِيْثِكَ أَوْ شَخْصِكَ، فَمَا زَانَ المُتَحَدِّثَ إِلَّا الرَّزَانَةُ، وَكُنْ كَمَا قِيْلَ:

مُلُوكٌ هُمُ الشُّمُّ الـرَّوَاسِي رَزَانَـةً ... إِذَا مَا اسْتَخَفَّ الحِلْمَ حَقٌّ وَبَاطِلُ
وَإِنْ نَهَضُوا يَوْمًا لِحَرْبٍ رَأَيْتَهُمْ ... كَأَنَّهُمُ فَوْقَ الجِيَادِ الأَجَـادِلُ(٢)

(١) «الفَاضِلُ» (٥٠).
(٢) «نُزْهَةُ الأَبْصَارِ بِطَرَائِفِ الأَخْبَارِ والأَشْعَارِ» (٩٠).

١٩ـ مُقَابَلَةُ النَّاسِ بِوَجْهَيْنِ :

وَمِنْ مَوانِعِ السَّكِيْنَةِ مُقَابَلَةُ النَّاسِ بِوَجْهَيْنِ فَيَلْقَىٰ الأَخُ أَخَاهُ بِالبِشْرِ وَالتِّرْحَابِ ، فَإِذَا تَوَارَىٰ عَنْهُ سَلَقَهُ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، وَهَذِهِ صِفَةٌ قَبِيْحَةٌ وَصَاحِبُهَا مِنْ شَرِّ النَّاسِ (١).

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ ، الَّذِي يَلْقَىٰ هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ** » (٢) .

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ :

وَكَمْ مِنْ صَدِيْقٍ وُدُّهُ بِلِسَانِهِ   خَؤُونٌ بِظَهْرِ الغَيْبِ لاَ يَتَذَمَّمُ
يُضَاحِكُنِي عُجْبًا إِذَا مَا لَقِيْتُهُ   وَيَصْدُفُنِي مِنْهُ إِذَا غِبْتُ أَسْهُمُ
كَذَلِكَ ذُو الوَجْهَيْنِ يُرْضِيْكَ شَاهِدًا   وَفِي غَيْبِهِ إِنْ غَابَ صَابٌ (٣) وَعَلْقَمُ (٤)

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَادِ -حَفِظَهُ اللهُ-:

مَعَ هَؤُلاَءِ مُشَجِّعٌ وَمُؤَيِّدٌ   وَلِهَؤُلاَءِ مُسَانِدٌ وَنَصِيْرُ

---

(١) انْظُرْ : « سُوْءِ الخُلُقِ » لِلحَمْدِ (٢٤) . .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٧١٧٩) ، ومُسْلِمٌ (٢٥٢٦) .
(٣) صَابٌ : الصابُ شَجَرٌ مُرٌّ كَالعَلْقَمِ .
(٤) « أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّيْنِ » (٢٢٤) .

لَيْسَ النِّفَاقُ مِنَ الحِذَاقَةِ إِنَّمَا دَاءٌ عَيَاءٌ فِي الأَنَامِ خَطِيْرُ
يَا صَاحِبَ الوَجْهَيْنِ أَنْتَ مُدَنَّسٌ وَأَجَلُّ مِنْكَ الكَلْبُ والخِنْزِيْرُ

٢٠ـ المُمَاطَلَةُ في أَدَاءِ الحَقِّ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ المُمَاطَلَةُ فِي أَدَاءِ الحَقِّ ، مَعَ القُدْرَةِ عَلَىٰ الأَدَاءِ بَلْ السَّكِيْنَةُ المُبَادَرَةُ أَدَاءُ الحَقِّ قَبْلَ وَقْتِهِ ، وَقَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ سَوَاءً كَانَ أَمَانَةً أَوْ عَارِيَةً أَوْ دَيْنًا أَوْ شُغْلاً أَوْ وَعْدًا .

وَقَدْ نَهَىٰ الرَسُولُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ المُمَاطَلَةِ فِي أَدَاءِ الحَقِّ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**مُطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَىٰ مِلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ** » (١).

وَمَا أَكْثَرَ الَّذِيْنَ يُمَاطِلُونَ فِي أَدَاءِ الحَقِّ ، يَأْتِي عَلَيْهِ صَاحِبُ الحَقِّ فَيَقُولُ: يَا فُلانُ أَعْطِنِي حَقِّي ، فَيَقُولُ : غَدًا ، فَيَأْتِيْهِ مِنْ غَدٍ فَيَقُولُ : بَعْدَ غَدٍ ، وَهَكَذَا، فَإِنَّ هَذَا الظُّلْمَ يَكُونُ ظُلُمَاتٍ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ صَاحِبِهِ » (٢).

فَمَاذَا أَبْقَىٰ لِنَفْسِهِ مِنَ السَّكِيْنَةِ وَالوَقَارِ وَالمَهَابَةِ وَالجَلَالِ .

وَمَا الجُودُ مِنْ فَقْرِ الرِّجَالِ وَلاَ الغِنَى وَلَكِنَّهُ خَيْمُ النُّفُوسِ وَخَيْرُهَا

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٤٠٠) ، ومُسْلِمٌ (١٥٦٤) .
(٢) «شَرْحُ رِيَاضِ الصَّالِحِيْنَ» لابْنِ عُثَيْمِيْنَ (٢/ ٤٨٦) .

فَنَفْسَكَ أَكْرِمْ عَنْ أُمُورٍ كَثِيْرَةٍ فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَسْتَعِيْرُهَا [(١)]

٢١ـ عَدَمُ قُبُولِ العُذْرِ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ عَدَمُ قُبُولِ العُذْرِ ، بَلْ السَّكِيْنَةُ إِذَا اعْتَذَرَ إِلَيْكَ أَخُوْكَ لِجُرْمٍ مَضَىٰ أَوْ لِتَقْصِيرٍ سَبَقَ أَنْ تَجْعَلَهُ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ .

قَالَ ابْنُ حَبَّانَ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

« لاَ يَخْلُو المُعْتَذِرُ فِي اعْتِذَارِهِ مِنْ أَحَدِ رَجُلَيْنِ : إِمَّا يَكُونُ صَادِقًا فِي اعْتِذَارِهِ أَوْ كَاذِبًا ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ اسْتَحَقَّ العَفْوَ ؛ لِأَنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ لَمْ يُقِلْ العَثَرَاتِ ، وَلاَ يَسْتُرُ الزَّلاَّتِ .

وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَالوَاجِبُ عَلَىٰ المَرْءِ إِذَا عَلِمَ مِنَ المُعْتَذِرِ إِثْمَ الكَذِبِ، وَرِيْبَتَهُ، وَخُضُوعَ الاعْتِذَارِ وَذِلَّتَهُ أَنْ لاَ يُعَاقِبَ عَلَىٰ الذَّنْبِ السَّالِفِ ، بَلْ يَشْكُرُ لَهُ الإِحْسَانَ المُحْدَثَ ، الَّذِي جَاءَ بِهِ فِي اعْتِذَارِهِ ، وَلَيْسَ يَعِيْبُ المُعْتَذِرَ إِنْ ذَلَّ وَخَضَعَ فِي اعْتِذَارِهِ لِأَخِيْهِ » [(٢)].

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

اقْبَلْ مَعَاذِيْرَ مَنْ يَأْتِيْكَ مُعْتَذِرًا إِنَّ بَرَّ عِنْدَكَ فِيْمَا قَالَ أَوْ فَجَرَا

(١) «دِيْوَانُ المَعَانِي» لأَبِـي هِلَال العَسْكَرِي (٢/ ٢٤٨) .
(٢) « رَوْضَةُ العُقَلَاءِ» (١٨٤-١٨٥) .

لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيْكَ ظَاهِرُهُ وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيْكَ مُسْتَتِرَا (١)

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَادِ -حَفِظَهُ اللَّهُ-:

إِنِّي وَافَيْتُكَ مُعْتَذِرًا يَحْدُونِي الحِرْصُ عَلَىٰ وُدِّكْ
يَا أَغْلَىٰ عِنْدِي مِنْ نَفْسِي مَنْ لِي إِخْوَانٌ مِنْ بَعْدِكْ؟
إِنْ لَمْ يَقْبَلْ عَقْلُكَ عُذْرِي فَاجْعَلْ لِي عُذْرًا مِنْ عِنْدِكْ

٢٢ـ الإِفْرَاطُ فِي العِتَابِ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ الإِفْرَاطُ فِي العِتَابِ وَاللَّوْمِ والتَّعْنِيْفِ عَلَىٰ مَنْ أَسَاءَ؛ فَكَثْرَةُ اللَّوْمِ مُنَافٍ لِلسَّكِيْنَةِ وَالوَقَارِ، مُدْعَاةٌ لِلغَضَبِ، مَجْلَبَةٌ لِسَماعِ مَا يُؤْذِي سِيَّمَا إِذَا كَانَ المُسِيْءُ جَاهِلاً .

قَالَ البُحْتُرِيُّ:

مَتَىٰ أَحْرَجْتَ ذَا كَرَمٍ تَخَطَّى إِلَيْكَ بِبَعْضِ أَخْلاقِ اللَّئِيْمِ (٢)

كَذَلِكَ الأُسْلُوبُ القَاسِي فِي العِتَابِ مُنَافٍ -أَيْضًا- لِلسَّكِيْنَةِ كَالإِلْحَاحِ وَمُجَاوَزَةِ الحَدِّ وَإِلْقَاءِ التُّهْمَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَضُرُّ أَكْثَرَ .

---

(١) «دِيْوَانُ الشَّافِعِيّ» (٩٩)، وَتُنْسَبُ لابْنِ المُعْتَزِ، كَمَا فِي «دِيْوَانُ الصبَابَة» .
(٢) «دِيْوَانُ البُحْتُرُيّ» (٢/ ١٧٧) .

قَالَ ابْنُ رُزَيْقٍ الْبَغْدَادِيُّ :

جَـاوَزْتَ فِي لَوْمِهِ حَدًّا أَضَرَّ بِهِ   مِنْ حَيْثُ قَدَّرْتَ أَنَّ اللَّوْمَ يَنْفَعُهُ (١)

فَالْزَمْ-أَخِي-الرِّفْقَ فَإِنَّ مَعَهُ السَّكِينَةَ،فَعَنْ أَنَسٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ** » (٢)، وَفِي لَفْظٍ: « **مَا كَانَ الرِّفْقَ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلاَ نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ** » (٣).

وَالْزَمْ-أَيْضًا-الاقْتِصَادُ فِي الْمِزَاحِ وَاخْتِيَارَ الوَقْتِ وَالأُسْلُوبِ الأَمْثَلِ.

وَمَعَ أَنَّ الرَسُولَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-كَانَ يُعَاتِبُ ، لَكِنَّ عِتَابَهُ لاَ يَكَادُ يُذْكَرُ أَمَامَ صَبْرِهِ وَحِلْمِهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فَعَنْ أَنَسٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ: « **خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-عَشْرَ سِنِيْنَ ، فَمَا قَالَ لِي-قَطُّ-أُفٍّ ، وَلاَ قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ لِمَ فَعَلْتُهُ، وَلاَ لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ : أَلاَ فَعَلْتَ كَذَا** » (٤) .

وَمِنْ أَجْمَلِ مَا قِيلَ فِي العِتَابِ :

عِتَابُكُـمْ هُـوَ الشَّـهْدُ الْمُصَفَّـى   وَبَعْـضُ العُتْبِ مَهْلَكَـةٌ وَصَابُ

(١) « العِتَابُ بَيْـنَ الأَصْدِقَاء» لِعَلِيِّ أَبِي نَصِيَة (٤٤) .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٩٢٧) ، وَمُسْلِمٌ (٢١٦٥) .
(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٩٤) .
(٤) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٥٦١) ، وَمُسْلِمٌ (٢٣٣٠) .

وَأَحْلَى العُتْبِ يَصْدُرُ مِنْ حَبِيْبٍ ... وَيَبْقَى الوُدُّ مَا بَقِيَ العِتَابُ

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَاد -حَفِظَهُ اللّه-:

يَا لاَئِمِي وَمُعَاتِبِي وَمُخَاصِمِي ... رِفْقًا بِقَلْبِي قَدْ أَطَلْتَ عِتَابِي
أَيْقَنْتُ حُبَّكَ وَاعْتَرَفْتُ بِزِلَّتِي ... وَخَفَضْتُ مِنْ حِرْصِي عَلَيْكَ جَنَابِي
لاَ تَجْعَلِ العُتْبَى عَلَيَّ مَذَلَّةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ ضَلاَلَتِي وَصَوَابِي
لَوْلاَ احْتِرَامُكَ وَالمَعَزَّةُ بَيْنَنَا ... لَنَسِيْتُ أَنَّكَ كُنْتَ مِنْ أَحْبَابِي
أَقْلِلْ عِتَابَكَ لِلصَّدِيْقِ فَإِنَّهُ ... بَشَرٌ وَبَعْضُ اللَّوْمِ كَمَا لأَوْصَاب!!
فَلَقَدْ بَلَغْتَ العُذْرَ فِي إِرْشَادِهِ ... وَتَرَكْتَهُ لِمُسَبِّبِ الأَسْبَابِ

٢٣ـ المُبَالَغَةُ فِي المُمَاكَسَةِ :

وَمِنْ مَوَانِعِ السَّكِيْنَةِ المُبَالَغَةُ فِي المُمَاكَسَةِ ، المُمَاكَسَةُ هِيَ انْتِقَاصُ الثَّمَنِ وَاسْتِحْطَاطُهُ(١).

وَلاَ بَأْسَ بِالمُمَاكَسَةِ فِي البَيْعِ ، لَكِنَّ المُبَالَغَةَ فِي المُمَاكَسَةِ دَنَاءَةٌ ، وَمِنْ خَوَارِمِ المُرُوءَةِ، وَقَدْ قِيْلَ :

« كَثْرَةُ المِكَاسِ مِنْ أَفْعَالِ الخِسَاسِ» ، وَرَأَى رَجُلٌ ابْنَهُ يُمَاكِسُ فِي ابْتِيَاعِ

---

(١) «المَجْمُوعُ المُغِيْثُ فِي غَرِيْبَيْ القُرْآنِ والحَدِيْثِ » (٣/ ٢٢٢) .

لَحْم فقَالَ : يَا بُنَيَّ تَسَاهَلْ ، فَمَا تُضَيِّعُهُ مِنْ عِرْضِكَ أَكْثَرُ مِمَّا تَنَالُهُ مِنْ عَرْضِكَ، وَكَانَ الأَصْمَعِيُّ مُضَيِّقًا فِي مَعِيْشَتِهِ مُسْتَقْصِيًا فِي مُبَايَعَتِهِ ، فَقَال العَتْبِيُّ: لَوْ بُذِلَتْ الجَنَّةَ لِلأَصْمَعِيِّ بِدِرْهَمٍ لِمَا رَضِيَ وَاسْتَنْقَصَ شَيْئًا .

وَقَالَ رَجُلٌ لِخَيَّاطِ : خِطْ لِي هَذَا الثَّوْبَ وَسَامِحْنِي فِي الأُجْرَةِ ، فَقَالَ : أَخِيْطَهُ لَكَ مَجَّانًا ، فَقَالَ : زِدْنِي ، قَالَ : إِذَنْ تَخْرِقُ رُقْعَتَهُ لَكَ .

وَنَحْوَ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلاً كَانَ يَسْتَأْجِرُ غُلامًا ، فَقَالَ : كَمْ تَطْلُبُ ، فَقَالَ : أَخْدُمُكَ بِمَلْءِ بَطْنِي ، فَقَالَ : سَامِحْنِي ، فَقَالَ : لاَ أَعْرِفُ مُسَامَحَةً فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ أَصُومَ لَكَ الإِثْنَيْنَ والخَمِيْسَ فِي الأَسَابِيْعِ لِتَرْبَحَ غَدَاءَهُمَا [١] .

وَقَالَ الحَمْدُ : « أَعْرِفُ شَابًا مُكَافِحًا يَسْعَىٰ إِلَىٰ إِعْفَافِ نَفْسِهِ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ ، وَقَدْ اشْتَرَىٰ لِأَجْلِ ذَلِكَ سَيَّارَةَ شَحْنٍ ، وَصَارَ يَحْمِلُ عَلَيْهَا البَضَائِعُ وَيُوصِلُهَا مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ ، مُقَابِلَ مَبَالِغَ يُتَّفِقُ عَلَيْهَا مَعَ أَصْحَابِ البَضَائِعِ .

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ طَلَبَ مِنْهُ شَخْصٌ غَنِيٌّ أَنْ يُوصِلَ أَغْرَاضَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ يَزِيْدُ بُعْدُهُ عَلَىٰ سُتَّمِائَةِ كِيْلُو مِتْرٍ ، وَاتَّفَقَا عَلَىٰ سِفْرٍ مُعَيَّنٍ ؛ فَلَمَّا أَوْصَلَ الشَّابُّ تِلْكَ الأَغْرَاضَ بَدَأَ صَاحِبُهُ بِمُمَاكَسَتِهِ ، وَالإِلْحَاحُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ بَعْضِ المَبْلَغِ مَعَ أَنَّهُ زَهِيدٌ يَأْخُذُهُ كُلَّ الَّذِيْنَ هُمْ عَلَىٰ تِلْكَ الشَّاكِلَةِ ، بَلْ يَأْخُذُونَ

---

(١) « مُحَاضَرَةُ الأُدَبَاءِ » (١/ ٥٥٠) .

أَكْثَرَ مِنْهُ .

حِيْنَهَا قَالَ لَهُ الشَّابُّ : أَلَمْ أَتَّفِقْ مَعَكَ عَلَىٰ المَبْلَغِ المَذْكُورِ ؟ ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ الغَنِيُّ : بَلَىٰ ، وَلَكِنْ آمُلُ أَنْ تَتَسَامَحَ فِي بَعْضِ المَبْلَغِ ، فَقَالَ لَهُ الشَّابُّ : أَنَا فَقِيْرٌ مِسْكِيْنٌ لاَ دَخْلَ لَدَيَّ وَأَعُولُ أُسْرَةً ، وَأَنْتَ رَجُلٌ غَنِيٌّ لاَ يُضِرُكَ هَذَا المَبْلَغُ، فَقَالَ الغَنِيُّ : وَلَوْ كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ فَأَنَا آمُلُ مِنْكَ تَلْبِيَةَ رَغْبَتِي .

وَلَمَّا ضَاقَ ذَلِكَ الشَّابُّ بِتِلْكَ المُمَاكَسَةِ عَزَّتْ نَفْسُهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : إِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَأَنَا مُتَنَازِلٌ عَنْ جَمِيْعِ المَبْلَغِ ، وَأُوَدِّعُكَ الآنَ ؛ لِكَيْ أَرْجِعَ إِلَىٰ بَلَدِي وَأَهْلِي ، فَقَالَ لَهُ الغَنِيُّ : لَيْسَ الأَمْرُ كَمَا تَقُولُ ، وَإِنَّمَا أَطْمَعُ أَنْ أَصِلَ إِلَىٰ حَلٍّ سَوَاءٍ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، فَأَقْسَمَ الشَّابُّ أَنْ لاَ يَأْخُذَ رِيَالاً وَاحِدًا ، فَانْصَرَفَ ، وَصَارَ الغَنِيُّ يُنَادِيْهِ ، وَهُوَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ ، وَرَجَعَ دُونَ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا ؛ فَانْظُرْ إِلَىٰ هَذَا اللُّؤْمِ وَالبُخْلِ وَالشَّرَهِ وَصِغَرِ النَّفْسِ .

وَأَعْرِفُ رَجُلاً مِنْ ذَوِي الأَمْوَالِ الطَّائِلَةِ وَلَكِنَّهُ بَخِيْلٌ جِدًا ، وَذَاتَ يَوْمٍ دَخَلَ مَحَلًّا صَغِيْرًا تُبَاعُ فِيْهِ بَعْضُ السِّلَعِ الرَّخِيْصَةِ ، وَصَاحِبُهُ ، رَجُلٌ فَقِيْرٌ، فَطَلَبَ ذَلِكَ الرَّجُلُ المُوْسِرُ نَوعًا مِنْ مُرَطِّبَاتِ اليَدَيْنِ وَالبَدَنِ، فَأَحْضَرَهُ لَهُ صَاحِبُ المَحَلِّ ، فَسَأَلَ المُشْتَرِي عَنْ قِيْمَةِ السِّلْعَةِ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ المَحَلِّ: قِيْمَتُهَا خَمْسَةَ عَشَرَ رِيَالاً ، فَصَارَ المُشْتَرِي الغَنِيُّ يُلِحُّ وَيَتَوَسَّلُ إِلَىٰ صَاحِبِ المَحَلِّ أَنْ يَبِيْعَهُ إِيَّاهُ بِاثْنَي عَشَرَ رِيَالاً ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ المَحَلِّ: هَذَا هُوَ

مَكْسَبُنَا ، فَقَالَ لَهُ المُشْتَرِي : وَلَوْ كَانَ ؛ فَاسْتَحْيَا صَاحِبُ المَحَلِّ ، وَوَافَقَ عَلَىٰ مُضَضٍ .

وَكَانَ أَحَدُ النَّاسِ حَاضِرًا فِي ذَلِكَ الوَقْتِ ، وَآلَمَهُ ذَلِكَ المَوْقِفُ كَثِيرًا ، وَهَمَّ بِأَنْ يَقُولَ لِذَلِكَ الغَنِيِّ : أَمَا تَسْتَحِي !! ، وَهَمَّ بِأَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ الثَّمَنَ، وَلَكِنْ خَشِيَ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ ؛ فَآثَرَ الصَّمْتَ (١) .

وَمِنْ جَمِيلِ مَا قِيلَ فِي المُمَاكَسَةِ :

أَلِفَ البَخِيلُ مُكَاسَهُ فِي مَالِهِ ... والعُمْرَ أَنْفَقَ مِنْهُ غَيْرَ مُمَاكِسِ
وَثَوَىٰ فَأَرْمَسَ ثُمَّ صَارَ تُرَاثُهُ ... قَسَمًا يَفِيضُ بِهِ دُمُوعُ الرامِسِ (٢)

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيمِ العِمَادِ -حَفِظَهُ اللَّهُ- :

عَجَبًا مِنَ البُخَلَاءِ بَلْ مِنْ لُؤْمِهِمْ ... حَطُّوا النُّفُوسَ وَبَجَّلُوا الدِّينَارا !!!
يَتَكَالَبُونَ عَلَىٰ الرِّيَالِ دَنَاءَةً ... وَيُحَرِّمُونَ البَذْلَ والإِيثَارَا
قُلْ مَا تَشَاءُ بِنَفْسِهِ أَوْ عِرْضِهِ ... إِنْ كَانَ يَكْسِبُ بَعْدَهَا مِقْدَارًا !!!
شَرَفُ البَخِيلِ وَعَارُهُ فِي مَالِهِ ... وَسِوَاهُ لَا شَرَفًا لَهُ أَوْ عَارَا
لَوْ مَاكَسَ البُخَلَاءُ فِي حَسَنَاتِهِمْ ... مِثْلَ الشِّرَاءِ ، لَنَافَسُوا الأَبْرَارَا

---

(١) «ارْتِسَامَاتٌ» لِمُحَمَّد إِبْرَاهِيم الحَمَدِ (٩٦-٩٧) .
(٢) «دِيوَانُ الخَفَاجِيِّ» (١٥٤) .

ثِمَارُ السَّكِينَة

بَعْدَ هَذَا التَّطْوَافِ مَعَكَ فِي رِيَاضِ السَّكِيْنَةِفَمِنْ تَعْرِيْفِهَا إِلَىٰ غَرْسِ أَشْجَارِهَا مُرُورًا بِالمَوَانِعِ الَّتِي تُعِيْقُ طَرِيْقَهَا وُصُولاً إِلَىٰ ثِمَارِهَا فَدُوْنَكَ ثِمَارَهُنَّ أَحْلَىٰ مِنْ ثِمَارِ المُنَىٰ .

طَابَ لَهُ مَأْكَلُهُ وَمَشْرَبُهْ — حَدِيْقَةٌ فِيْهَا ثِمَارٌ تُعْجِبُهْ
يَكْثُرُ فِيْهَا مَوْزُهُ وَرُطَبُهْ — يَلْقَاهُ مِنْهُ حِيْنَ يُجْنَىٰ أَطْيَبُهْ (١)

١ ـ دَفْعُ الوَسَاوِسِ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ دَفْعُ الوَسَاوِسِ الَّتِي تَعْتَرِضُ العَبْدَ فِي الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، كَالصَّلاَةِ والصِّيَامِ والحَجِّ والعُمْرَةِ وَغَيْرُ ذَلِكَ ، فَيَحْتَاجُ العَبْدُ إِلَىٰ السَّكِيْنَةِ لِيَدْفَعَ الوَسَاوِسَ الَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِي الأَعْمَالِ لِئَلَّا تَتَحَوَّلَ هَذِهِ الوَسَاوِسُ إِلَىٰ هُمُومٍ وَغُمُومٍ وَأَشْيَاءٍ تُقْلِقُهُ وَتُفْسِدُ عَلَيْهِ عِبَادَتَهُ .

وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَشْتَكِي مِنَ الوَسْوَسَةِ فِي الطَّهَارَةِ أَوْ فِي النِّيَّةِ ، أَوْ فِي الصَّلاَةِ أَوْ فِي الصِّيَامِ-نِيَّةِ الصَّوْمِ مَثَلاً-أَوْ خَوْفِ أَنْ يَنْقَطِعَ صِيَامُهُ أَوْ بَعْضُ الأَعْمَالِ الأُخْرَىٰ ، كَأَعْمَالِ البَيْعِ والشِّرَاءِ والنِّكَاحِ والطَّلاَقِ وَغَيْرِهَا،

---

(١) « رَبِيْعُ الأَبْرَارِ وَنُصُوصُ الأَخْيَارِ» لِلزَّمَخْشَرِيِّ (١/ ٢١٣) .

فَكَثِيرًا مَا يَشْتَكِي النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِفَقْدِ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِهِمْ.

وَمَنْ يَكُونُ فِي قَلْبِهِ السَّكِينَةُ فَإِنَّ اللهَ يَحْفَظُ قَلْبَهُ بِهَذِهِ السَّكِينَةِ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ الَّتِي تَهْجِمُ عَلَى أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ فَتُفْسِدُهَا [١].

٢ـ دَفْعُ الشَّكِّ فِي الإِيمَانِ بِاللهِ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِينَةِ دَفْعُ الشَّكِّ فِي الإِيمَانِ بِاللهِ فِي حَالِ الوَسَاوِسِ الَّتِي تَعْتَرِضُ الإِيمَانَ وتُشَكِّكُ العَبْدُ بِرَبِّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أَوْ اليَوْمِ الآخِرِ أَوْ البَعْثِ والنُّشُورِ ، فَإِنَّ السَّكِينَةَ هِيَ الَّتِي تَحْفَظُ قَلْبَ العَبْدِ -بِإِذْنِ اللهِ- مِنَ الزَّيْغِ والضَّلَالِ والخَوَاطِرِ الَّتِي تَهْجِمُ قُلُوبُ المُؤْمِنِينَ وَلاَ يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْهَا أَحَدٌ ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **لاَ يَزَالُ الشَّيْطَانُ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ : مَنْ خَلَقَ كَذَا ، مَنْ خَلَقَ كَذَا ، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ اللهَ ، فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللهِ** » [٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جَاءَهُ نَاسٌ مِنَ الصَّحَابَةِ فَقَالُوا : يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا الشَّيْءَ يَعْظُمُ أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِ مَا نُحِبُّ أَنَّ لَنَا الدُّنْيَا وَأَنَّا تَكَلَّمْنَا بِهَا ، فَقَال: « **أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ** » ، قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : « **ذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ** » [٣].

---

(١) انْظُرْ : « السَّكِينَةُ » لأَحَدِ طُلَّابِ العِلْمِ (١٥) .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٢٧٦) ، وَمُسْلِمٌ (١٣٤) .
(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٣٢) .

وَعَنْ ابْنُ عَبَّاس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسِيْ بِالأَمْرِ لأَنْ أَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَىٰ الوَسْوَسَةِ** »(١).

قَالَ الخَطَابِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« يُرِيْدُ أَنَّ صَرِيْحَ الإِيْمَانِ هُوَ الَّذِي يُعَظِّمُ مَا تَجِدُونَهُ فِي صُدُورِكُمْ وَيَمْنَعُكُمْ مِنْ قَوْلِ مَا يُلْقِيْهِ الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَلَوْلاهُ لَمْ يَتَعَاظَمُوهُ وَلَمْ يُنْكِرُوهُ، وَلَمْ يُرِدْ أَنَّ الوَسْوَسَةَ نَفْسَهَا صَرِيْحُ الإِيْمَانِ، وَكَيْفَ تَكُونُ إِيْمَانًا وَهِيَ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ، أَلَا تَرَاهُ أَنَّهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حِيْنَ سُئِلَ عَنْ هَذَا قَالَ: « **الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَىٰ الوَسْوَسَةِ** »(٢).

وَقَوْلُهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَىٰ الوَسْوَسَةِ** » لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يُوَسْوِسُ فِي القَلْبِ الخَارِبِ، وَإِنَّمَا يُوَسْوِسُ فِي القَلْبِ العَامِرِ بِالإِيْمَانِ.

٣- دَفْعُ الخَوْفِ:

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ دَفْعُ الخَوْفِ، فَالقَلْبُ قَدْ يُصِيْبُهُ الخَوْفُ وَالهَلَعُ وَالفَزَعُ، فَيَفْقِدُ إِيْمَانَهُ بِاللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وَتَوَكُّلَهُ عَلَيْهِ فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ سَكِيْنَةٍ حَتَّىٰ

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدُ (٥١١) وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «ظِلَالِ الجَنَّةِ» (٦٥٤).
(٢) « مَعَالِمُ السُّنَنِ» لِلخَطَابِي (٤/ ١٣٦).

يَزُولَ هَذَا الخَوْفُ مِنْ قَلْبِهِ .

وَمَا أَكْثَرَ المَخَاوُفِ الَّتِي تُقْلِقُ قُلُوبَ النَّاسِ بَلْ الخَوْفُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ (١).

وَلِهَذَا قَالَ العُلَمَاءُ -رَحِمَهُمُ اللّهُ-:

«الخَوْفُ مِنَ المَرَضِ يَدْعُو إِلَىٰ المَرَضِ ذَاتِهِ وَأَكْثَرُ الأَمْرَاضِ مِنْ خَوْفِ المَرَضِ وَأَكْثَرُ مِنْ نِصْفِ السِّحْرِ أَوْهَامٌ ، أَيْ أَنَّهُمْ أَوْهَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنَّ عِنْدَهُمْ السِّحْرَ فَأَعَانُوا الشَّيَاطِيْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهُمْ ، وَمِنْ طَرِيْفِ مَا يُحْكَيْ عَنْهُ العَوَامُّ: أَنَّ رَجُلاً فَرَّ مِنْ عِنْدَهُ الوَبَاءُ ، فَقَالَ : إِلَىٰ أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ أَيُّهَا الوَبَاءُ ؟ .

فَقَالَ : ذَاهِبٌ إِلَىٰ قَرْيَةٍ كَذَا وَكَذَا .

قَالَ : مَاذَا أُمِرْتَ ؟ .

قَالَ : أُمِرْتُ أَنْ أَقْتُلَ مِنْهُمْ خَمْسَةَ آلَافٍ .

فَلَمَّا رَجَعَ مَرَّ مِنْ عِنْدِ الرَّجُلِ فَقَالَ لَهُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ .

قَالَ : أَقْبَلْتُ مِنْ قَرْيَةِ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : كَمْ قَتَلْتَ مِنْهُمْ ؟ .

قَالَ: خَمْسَةَ آلَافٍ، قَالَ:لَا ، بَلْ قَتَلْتُ مِنْهُمْ خَمْسِيْنَ أَلْفًا .

قَالَ:أَنَاقَتَلْتُ خَمْسَةَ آلَافٍ،أَمَّا خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ فَإِنَّمَا قَتَلَهُمْ الخَوْفُ والوَهْمُ!.

وَهَذِهِ الحِكَايَةُ وَإِنْ كَانَتْ لَا حَقِيْقَةَ لَهَا لَكِنَّ ذَلِكَ حَالُ كَثِيْرٍ مِنَ النَّاسِ

---

(١) «السَّكِيْنَةُ» (١٦) .

يَعِيْشُونَ مِنْ خَوْفِ المَرَضِ فِي مَرَضٍ ، فَكَمْ مِنْ أُنَاسٍ طَلَعَتْ لَهُمْ فُحُوصَاتٌ وَتَحَالِيْلُ تُفِيْدُ أَنَّ عِنْدَهُمْ أَمْرَاضًا خَطِيْرَةً لَكِنَّهَا خَاطِئَةٌ فَاسْتَقْبَلُوا المَرَضَ فِي خَوْفٍ وَاسْتَسْلَمُوا لِلمَرَضِ الحَقِيْقِي وَالسَّكِيْنَةُ عِلاَجٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

٤ـ الاعْتِدَالُ فِي الفَرَحِ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ الاعْتِدَالُ فِي الفَرَحِ ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القَصَصُ :٧٦] .

فَالفَرَحُ بِمَا نَالَهُ الإِنْسَانُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا يُلْحِقُهُ فِي نَفْسِهِ الخُيَلاَءَ وَالافْتِخَارَ وَالتَّكَبُّرَ عَلَىٰ النَّاسِ وَالسَّكِيْنَةُ تَدْعُو لِلاعْتِدَالِ ، فَإِنْ أَصَابَ المَرْءُ خَيْرًا جَعَلَهُ شُكْرًا ، وَالفَرَحُ المَحْمُودُ إِنَّمَا هُوَ بِالإِيْمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ العِلْمِ وَالتَّقْوَىٰ .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يُونُسُ :٥٨] .

لَكِنْ لاَ تَفْرَحْ بِالطَّاعَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا صَدَرَتْ مِنْكَ ، بَلْ افْرَحَ بِهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ هَدِيَّةٌ مِنَ اللهِ لَكَ .

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَاد -حَفِظَهُ اللهُ-:

قَارِنْ بَيْنَ الأَعْمَالِ وَلاَ　　　تَفْرَحْ بِصَلاَحِكَ يَا صَالِحْ

بَلْ فَرْحَتُكَ الكُبْرَىٰ أَنْ قَدْ   جَاءَتْكَ مِنَ اللهِ المَانِحِ
فَغُرُورُ العَبْدِ بِطَاعَتِهِ   قَدْ يَجْعَلُهُ عَبْدًا طَالِحْ !!
مَنْ لَمْ يَحْذَرْ بِسَاحَتِهِ   قَدْ يُغْرِقُهُ المَوْجُ الكَاسِحْ

٥ـ تَخْفِيْفُ الأَلَمِ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ أَنَّهَا تُخَفِّفُ أَلَمَ المَرَضِ ، بَلْ قَدْ تَجْعَلُهُ لاَ يُحِسُّ بِهِ البَتَّةَ ، وَكَأَنَّهُ تَحْتَ التَّخْدِيْرِ وَمَا بِهِ تَخْدِيْرٌ وَلَكِنَّهَا السَّكِيْنَةُ .

فَقَدْ يَتَأَلَّمُ الإِنْسَانُ وَيَتَلَوَّىٰ مِنْ شِدَّةِ مَا يُعَانِيْهِ مِنَ المَرَضِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَضَعُ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- السَّكِيْنَةَ فِي قَلْبِهِ ، فَيُصْبِحُ وَكَأَنَّهُ يَتَقَلَّبُ عَلَىٰ فُرُشٍ مِن الحَرِيْرِ وَالدِّيْبَاجِ، وَذَلِكَ لأَنَّ اللهَ مَتَّعَهُ بِنِعْمَةِ الإِيْمَانِ فِي قَلْبِهِ وَالسَّكِيْنَةِ فِي نَفْسِهِ، فَأَصْبَحَ مُطْمَئِنًّا إِلَىٰ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وَاثِقًا بِهِ رَاجِيًا مَا عِنْدَهُ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ ذَلِكَ عَجَائِبَ ، يَزُورُ أَحَدُنَا الرَّجُلَ الصَّالِحَ فَتُخَالُهُ مِنَ السَّكِيْنَةِ وَمَا بِهِ بَأْسٌ وَإِنَّهُ لَفِي شِدَّةِ المَرَضِ ، بَلْ مَا تَكَادُ تَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّىٰ يَبْلُغَكَ خَبَرُ مَوْتِهِ .

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَادِ -حَفِظَهُ اللهُ-:

سَكِيْنَةُ القَلْبِ أَخْفَتْ سَائِرَ الأَلَمِ   وَنِعْمَةُ الصَّبْرِ أَغْنَتْهُ عَنِ الكَلِمِ

أَجْرُ البَلَاءِ ابْتِسَامَاتٌ قَدِ ارْتَسَمَتْ   في وَجْهِهِ هِبَةً مِنْ وَاهِبِ النِّعَمِ
تَـرَاهُ يَكْتُمُ آهَـاتٍ قَدِ انْفَجَرَتْ   تَسْرِي عَلَىٰ جِسْمِهِ المُنْهَارِ كَالحِمَمِ
يُطَمْئِنُ الأَهْـلَ والـزُّوَّار مُبْتَسِماً   لاَ تَقْلَقُوا لَيْسَ بِي شَيْءٌ مِنَ السَّقَمِ
لَمْ يَلْبَثُوا بُرْهَةً مِنْ بَعْدِ مَا خَرَجُوا   حَتَّىٰ أَتَىٰ نَعْيُهُ كَالطَّيْفِ فِي الحُلُمِ !!

خَمْسَةُ أُمُورٍ تَأَمَّلْهَا وَهِيَ :

١-دَفْعُ الوَسْاوِسِ .

٢-دَفْعُ الشَّكِّ فِي الإِيْمَانِ بِاللهِ .

٣-دَفْعُ الخَوْفِ .

٤-الاعْتِدَالُ فِي الفَرَحِ .

٥-تَخْفِيْفُ الأَلَمِ .

إِنَّهَا خَمْسَةُ أُمُورٍ مُهِمَّةٍ وَثِمَارٌ تَامَّةٌ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ إِلَّا هِيَ وَحْدَهَا لَرَأَيْتُ المُقَصِّرَ فِي اكْتِسَابِ السَّكِيْنَةِ فِي حَضِيْضٍ فَكَيْفَ وَلَهَا أَخْوَاتٌ بَعْضُهَا أَرْفَعُ مِنْ بَعْضٍ ؟!! .

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- تِلْكَ الأُمُورَ الخَمْسَةَ المُتَقَدِّمَةَ ، وَأَنَّ العَبْدَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ السَّكِيْنَةِ عِنْدَهَا بَلْ وُجُودُهَا فِي تِلْكَ المَوَاطِنِ عَلَامَةُ الظَّفَرِ فَقَالَ :

«العَبْدُ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ السَّكِينَةِ عِنْدَ الوَسَاوِسِ المُعْتَرِضَةِ فِي أَصْلِ الإِيْمَانِ لِيَثْبُتَ قَلْبُهُ وَلَا يَزِيْغَ ،وَعِنْدَ الوَسَاوِسِ وَالخَطَرَاتِ القَادِحَةِ فِي أَعْمَالِ الإِيْمَانِ لِئَلَّا تَقْوَىٰ وَتَصِيْرَ هُمُومًا وَغُمُومًا وَإِرَادَاتٍ يُنْقَصُ بِهَا إِيْمَانُهُ ، وَعِنْدَ أَسْبَابِ المَخَاوِفِ عَلَىٰ اخْتِلافِهَا لِيَثْبُتَ قَلْبُهُ وَيَسْكُنَ جَأْشُهُ ، وَعِنْدَ أَسْبَابِ الفَرَحِ لِئَلَّا يَطْمَعَ بِهِ مَرْكَبُهُ فَيُجَاوِزُ الحَدَّ الَّذِي لاَ يُعْبَرُ فَيَنْقَلِبُ تَرَحًا وَحُزْنًا ، وَكَمْ مِمَّنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِمَا يُفْرِحُهُ ، فَجَمَعَ بِهِ مَرْكَبُ الفَرَحِ وَتَجَاوَزَ الحَدَّ فَانْقَلَبَ تَرَحًا عَاجِلاً ، وَلَوْ أُعِيْنَ بِسَكِيْنَةٍ تَعْدِلُ فَرَحَهُ لأُرِيْدَ بِهِ الخَيْرُ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيْق، وَعِنْدَ هُجُومِ الأَسْبَابِ المُؤْلِمَةِ عَلَىٰ اخْتِلافِهَا الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ فَمَا أَحْوَجَهُ إِلَىٰ السَّكِيْنَةِ حِيْنَئِذٍ ، وَمَا أَنْفَعَهَا لَهُ ، وَأَجْدَاهَا عَلَيْهِ ، وَأَحْسَنَ عَاقِبَتَهَا.

وَالسَّكِيْنَةُ فِي هَذِهِ المَوَاطِنِ عَلامَةٌ عَلَىٰ الظَّفَرِ ، وَحُصُولِ المَحْبُوبِ، وَانْدِفَاعِ المَكْرُوهِ ، وَفَقْدُهَا عَلامَةٌ عَلَىٰ ضِدِّ ذَلِكَ لاَ يُخْطِئُ هَذَا وَلَا هَذَا ، وَاللهُ المُسْتَعَانُ »(١).

٦ ـ زِيَادَةُ الإِيْمَانِ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ أَنَّهَا سَبَبٌ فِي زِيَادَةِ الإِيْمَانِ .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ** ﴾[الفَتْحُ :٤] .

---

(١) « أَعْلامُ المُوَقِّعِيْنَ » (٤/ ١٥٦) .

وَالسَّكِيْنَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ- عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِيْنَ هِيَ مَا وَقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ رِضًا وَطُمَأْنِيْنَةٍ بَعْدَ هَذِهِ الْمُوجَاتِ الَّتِي تَدَافَعَتْ فِي صُدُورِهِمْ، مِنْ وَسَاوِسِ الحِيْرَةِ وَالبَلْبَلَةِ، سَاعَةَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ، فَقَدْ اضْطَرَبَتْ كَثِيْرٌ مِنَ القُلُوبِ، وَزَاغَتْ كَثِيْرٌ مِنَ الأَبْصَارِ، وَقَصَّرَتْ كَثِيْرٌ مِنَ الأَفْهَامِ عَنْ أَنْ تَرَىٰ مَا وَرَاءَ هَذَا الصُّلْحِ مِنْ خَيْرٍ كَثِيْرٍ، وَفَتْحٍ مُبِيْنٍ، فَوَقَعَتْ فِيْمَا وَقَعَتْ فِيْهِ مِنْ حِيْرَةٍ وَبِلْبَالٍ (١).

لَكِنَّ اللهُ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ- بَعْدَ هَذَا أَنْزَلَ السَّكِيْنَةَ فِي قُلُوبِهِمْ لِيَزْدَادُوا إِيْمَانًا إِلَىٰ إِيْمَانِهِمْ وَيَقِيْنًا إِلَىٰ يَقِيْنِهِمْ وَثَبَاتًا إِلَىٰ ثَبَاتِهِمْ، وَتَصْدِيْقًا إِلَىٰ تَصْدِيْقِهِمْ وَثِقَةً بِنَصْرِ اللهِ لَهُمْ.

٧ـ عِلَاجُ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ:

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ أَنَّهَا عِلَاجُ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ لاَ يُسْتَثْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ آيَاتِ السَّكِيْنَةِ وَجَدْتَهَا نَزَلَتْ فِي أَجْوَاءٍ مِنَ القَلَقِ وَالمَخَاوِفِ وَالمُزْعِجَاتِ، فَأَوْرَثَتْ أَهْلَهَا طُمَأْنِيْنَةً وَسُكُونًا وَهُدُوءً وَثَبَاتًا وَرَاحَةُ البَالِ.

وَمِنْ خِلَالِ نَظْرَةٍ سَرِيْعَةٍ فِي تِلْكَ الأَجْوَاءِ يَتَبَيَّنُ لَكَ ذَلِكَ.

---

(١) «التَّفْسِيـرُ القُرْآنِي لِلقُرْآن» لِعَبْدِ الكَرِيْم الخَطِيْب (١٣/ ٣٩٩).

١- قَالَ اللهُ-سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البَقَرَة:٢٤٨].

قَالَ ابْنُ عُثَيْمِيْنَ-رَحِمَهُ اللهُ-فِي تَفْسِيْرُ هَذِهِ الآيَةِ: «﴿ٱلتَّابُوتُ﴾ شَيْءٌ مِنْ خَشَبٍ أَوْ مِنْ خَشَبٍ أَوْ مِنَ العَاجِ يُشْبِهُ الصُّنْدُوقَ، يَنْزِلُ وَيَصْطَحِبُونَهُ مَعَهُمْ، وَفِيْهِ السَّكِيْنَةُ-يَعْنِي أَنَّهُ كَالشَّيْءِ الَّذِي يُسْكِنُهُمْ وَيَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ- وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ».

وَقَالَ-رَحِمَهُ اللهُ-: «وَصَارَ مَعَهُمْ أَيْ ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾ وَيَصْطَحِبُونَهُ فِي غَزَوَاتِهِمْ فِيْهِ السَّكِيْنَةُ مِنَ اللهِ-سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا هَذَا التَّابُوتَ سَكَنَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْشَرَحَتْ صُدُورُهُمْ» [١].

قَالَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-:

«الَّذِي كَانَ فِيْهِ-أَيْ التَّابُوتُ-اللَّوْحَانِ وَعَصَا مُوسَىٰ» [٢].

٢-فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ وَفِي تِلْكَ السَّاعَاتِ الحَرِجَةِ الَّتِي قَالَ اللهُ-سُبْحَانَـهُ وَتَعَـالَىٰ-: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ

(١) انْظُرْ: «تَفْسِيرُ القُرْآن» لِلعُثَيْمِيْن (٥/ ١٧٠).
(٢) «جَامِعُ البَيَان» لِلطَّبَرِيِّ (٥/ ٣١٩).

ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ نزلَتْ السَّكِيْنَةُ فَقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التَّوْبَة :٢٥-٢٦] .

٣-في يَوْم الهِجْرَةِ وَالرَّسُولُ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَصَاحِبُهُ فِي الغَارِ والعَدُوُّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ ، لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآهُمَا !!! .

فَقَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التَّوْبَةُ:٤٠].

قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

« فَهُمَا فِي تِلْكَ الحَالَةِ الحَرِجَةِ الشَّدِيْدَةِ المَشَقَّة ، حِيْنَ انْتَشَرَ الأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يَطْلُبُونَهُمَا لِيَقْتُلُوهُمَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ-تَعَالَىٰ-نَصْرَهُ مَا لاَ يَخْطُرُ عَلَىٰ بَالٍ » (١).

(١) « تَفْسِيرُ ابْن سَعْدِيّ » (٣٣٧) .

٤-وَفي الحُدَيْبِيَةِ تزَلْزَلَتْ القُلُوبُ مِنْ تَحَكُّم الكُفَّارِ عَلَيْهِمْ فنَزَلَتْ في تلْك اللَّحظَات السَّكيْنَةُ ، قَالَ اللهُ-سُبْحَانَـهُ وَتعَالَىٰ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفَتْحُ:٤].

٥-وَهَذَا المَوْقِفُ الثَّاني الَّذِي ذَكَرَ اللهُ-سُبْحَانَـهُ وَتعَالَىٰ-فِيْهِ تَنَزُّل السَّكيْنَة في الحُدَيْبِيَةِ ، عِنْدَ بَيْعَةِ الرِّضْوَان حيْثُ قَالَ-سُبْحَانَـهُ وَتعَالَىٰ-: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفَتْحُ:١٨].

تَحْتَ الشَّجَرَةِ مَاذَا يَفْعَلُونَ؟!، إِنَّهُمْ يُبايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-عَلَىٰ المَوْتِ وَبَذْلِ النَّفْسِ والنَّفِيْسِ في سَبِيْلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ -سُبْحَانَـهُ وَتعَالَىٰ- وَبَسْطِ دِيْنِه وَنُصْرَةِ نَبِيِّه-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَلَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ شُعُورَهُمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ قِلَّةٌ قَلِيْلَةٌ سَوْفَ يُوَاجِهُونَ عُدَّةً عَدِيْدَةً ، فَتَأْتِي السَّكِيْنَةُ تُسْكِنُ نُفُوسَهُمْ ، ثُمَّ بِشَارَةٌ مِنَ اللهِ بِنَصْرٍ مِنْهُ تَعَالَىٰ وَفَتْحٍ قَرِيْبٍ فَكَيْفَ تَكُونُ النُّفُوسُ بَعْدَ ذَلِكَ ! .

٦-وَهَذَا المَوْقِفُ الثَّالِثُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ-سُبْحَانَـهُ وَتعَالَىٰ- فِيْهِ تَنَزُّل السَّكيْنَة في الحُدَيْبِيَةِ، قَالَ-سُبْحَانَـهُ وَتعَالَىٰ-: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ

بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفَتْحُ:٢٦].

فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ نُزُولَ السَّكِيْنَةِ فِي تِلْكَ المَوَاطِنِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ- عَلَىٰ العِبَادِ .

قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« السَّكِيْنَةُ مَا يَجْعَلُهُ اللهُ فِي القُلُوبِ وَقْتَ القَلاَقِلِ وَالزَّلازِلِ والمُفْظِعَاتِ مِمَّا يُثَبِّتُهَا وَيُسْكِنُهَا وَيَجْعَلُهَا مُطْمَئِنَّةً ، وَهِي مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ » (١).

وَقَالَ تِلْمِيْذُهُ العَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِيْن -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« مِنْ أَكْبَرِ نِعَمِ اللهِ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ- عَلَىٰ العَبْدِ أَنْ يُنَزِّلَ السَّكِيْنَةَ فِي قَلْبِهِ بِحَيْثُ يَكُونُ مُطْمَئِنًّا غَيْرَ قَلِقٍ وَلا شَاكٍّ ، رَاضِيًا بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ ، مَعَ اللهِ فِي قَضَائِهِ وَقُدْرَتِهِ إِنْ أَصَابَتْهُ » (٢).

اليَوْمَ تَبْتَسِمُ لِلحَيَاةِ وَتَنْجَلِي ! سُحُبُ الأَسَىٰ عَنْ طَبْعِكَ المَجْهُودِ
اليَوْمَ تَنْعَمُ بِالسَّكِيْنَةِ وَالرِّضَى وَبُلُوغِ غَايَةِ سَعْيِكَ المَحْمُوْدِ (٣)

٨- المَهَابَةُ والتَّقْدِيْرُ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ المَهَابَةُ والتَّقْدِيْرُ ؛ فَإِنَّ السَّكِيْنَةَ بَاعِثَةٌ عَلَىٰ المَهَابَةِ

---

(١) « تَفْسِيرُ ابْن سَعْدِيّ » (٣٣٣) .
(٢) «شَرْحُ رِيَاضُ الصَّالِحِيْن» (٤/ ٧٠٨) .
(٣) «دِيْوَانُ أَحْمَد سَحْنُون» (١/ ٧٩) .

وَالتَّعْظِيْمِ شَهِدَ بِذَلِكَ العِلْمُ وَالتَّجَارُبُ وَالوَاقِعُ .

قَالَ المَاوَرْدِيُّ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

«كَانَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خُلُقُهُ السَّكِيْنَةُ البَاعِثَةُ عَلَىٰ الهَيْبَةِ وَالتَّعْظِيْمِ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ التَّقْدِيْمِ والتَّسْلِيْمِ ، وَكَانَ أَعْظَمَ مَهِيْبٍ فِي النُّفُوسِ حَتَّىٰ ارْتَاعَتْ رُسُلُ كِسْرَىٰ مِنْ هَيْبَتِهِ حِيْنَ أَتَوْهُ مَعَ ارْتِيَاضُهُمْ [١] بِصَوْلَةِ الأَكَاسِرَةِ وَمُكَاثَرَةِ المُلُوكِ الجَبَابِرَةِ فَكَانَ فِي نُفُوسِهِمْ أَهْيَبَ ، وَلَمْ يَتَطَاوَلْ بِسَطْوَةٍ ، بَلْ كَانَ بِالتَّوَاضُعِ مَوْصُوفًا وَبِالوِطَاءِ [٢] مَعْرُوفًا » [٣].

وَقَالَ ابْنُ عُثَيْمِيْن -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« وَالسَّكِيْنَةُ هِيَ عَدَمُ الحَرَكَةِ ، وَعَدَمُ الطَّيْشِ ، بَلْ يَكُونُ سَاكِنًا فِي قَلْبِهِ ، وَفِي جَوَارِحِهِ ، وَفِي مَقَالِهِ ، وَلاَ شَكَّ أَنَّ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ -الوَقَارُ وَالسَّكِيْنَةُ- مِنْ خَيْرِ الخِصَالِ الَّتِي يَمُنُّ اللهُ بِهَا عَلَىٰ العَبْدِ؛ لأَنَّ ضَدَّ ذَلِكَ : أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ لاَ شَخْصِيَّةَ لَهُ وَلاَ هَيْبَةَ لَه، وَلَيْسَ وَقُورًا ذَا هَيْبَةٍ، بَلْ هُوَ مَهِيْنٌ ، قَدَ وَضَعَ نَفْسَهُ وَنَزَّلَهَا ، وَكَذَلِكَ السَّكِيْنَةُ ضِدُّهَا أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ كَثِيْرَ الحَرَكَاتِ ، كَثِيْرَ التَّلَفُّتِ لاَ يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ سَكِيْنَةِ قَلْبِه وَلاَ قَوْلِهِ ولا فِعْلِهِ ، فَإِذَا مَنَّ اللهُ عَلَىٰ العَبْدِ بِذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ يَنَالُ بِذَلِكَ خُلُقَيْن

---

(١) ارْتِيَاضُهُمْ : اعْتِيَادُهُمْ مِنْ ارْتَاضَ أَيْ عَوَّدَ نَفْسَهُ وَتَدَرَّبَ .

(٢) الوِطَاء : هُوَ اللَّيِّنُ مِنَ الأَرْض .

(٣) « أَعْلاَمُ النُّبُوَّةِ » لِلمَاوَردِيِّ (١/ ٢١٦) .

كَرِيْمَيْنِ »[١].

مَهِيْبٌ تَرَدَّىٰ مِنْ عَجِيْبٍ سَكِيْنَةً   وَحِلْمًا يَفِيْ بِالرَّاسِيَاتِ وَقَارُهُ[٢]

٩ـ الشَّجَاعَةُ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ الشَّجَاعَةُ ؛ فَصَاحِبُ السَّكِيْنَةِ لاَ يَسْتَفِزُّهُ شَيْءٍ ، وَلاَ يَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ-سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-.

وَالشَّجَاعَةُ هِيَ ثَبَاتُ القَلْبِ عِنْدَ النَّوَازِلِ وإِنْ كَانَ ضَعِيْفَ البَطْشِ وَكَانَ الصِّدِّيْقُ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-أَشْجَعَ الأُمَّةِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَكَانَ عُمَرُ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-أَقْوَىٰ مِنْهُ ، وَلَكِنْ بَرَزَ عَلَىٰ الصَّحَابَةِ كُلِّهِم بِثَبَاتِ قَلْبِهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ مِنَ المَوَاطِنِ الَّتِي تُزَلْزِلُ الجِبَالَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ ثَابِتُ القَلْبِ ، رَبِيْطُ الجَأْشِ ، يَلُوذُ بِهِ شُجْعَانُ الصَّحَابَةِ وَأَبْطَالُهُم ، فَيُثَبِّتُهُمْ وَيُشَجِّعُهُمْ »[٣] .

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَشْجَعَ النَّاسِ ، فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قَالَ : « لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْم بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَىٰ العَدُوِّ ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ

---

(١) «شَرْحُ رِيَاضِ الصَّالِحِيْنِ» (٤/ ٩٠) .
(٢) « دِيْوَانُ ابْنِ دَرَّاجِ القَسْطَلِّيِّ » (٦٠٠) .
(٣) « الفُرُوسِيَّةُ » لابْنِ القَيِّمِ (٥٠٠) .

يُوْمَئِذٍ بأْسًا »[١].

وَعَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَحْسَنَ النَّاسِ ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِيْنَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَىٰ الصَّوْتِ وَهُوَ يَقُولُ : « **لَنْ تُرَاعُوا ، وَهُوَ عَلَىٰ فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِّيَ ، مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ وَفِي عُنُقِهِ سَيْفٌ ، لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا، أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ** [٢] » [٣] .

قَالَ الشَّاعِرُ :

يَلْقَىٰ المَنِيَّةَ فِي أَمْثَالِ عِدَّتِهَا كَالسَّيْلِ يَقْذِفُ جُلمُودًا بِجَلْمُودِ
يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذَا ضَنَّ الجَوَادُ بِهَا وَالجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ الجُودِ

وَقَالَ آخَرُ :

وَإِذَا الحُرُوبُ تَسَاجَلَتْ أَيَّامُهَا فَقَتِيْلُ سَيْفِكَ فِي المُلُوكِ جِبَارُ
وَلَقَدْ عَضَضْتَ عَلَىٰ الخُطُوبِ بِنَاجِذٍ لِلدَّهْرِ مِنْهُ سَكِيْنَةٌ وَوَقَارُ [٤]

---

(١) (صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٥٦٤)،وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ أَحْمَدُ شَاكِر -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «تَخْرِيْجُ المُسْنَدِ» (٢/ ٦٤).

(٢) بَحْرٌ : أَيْ وَاسِعَ الجَرْي (شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ مُسْلِمٍ) (١٥/ ٦٨) .

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٠٣٣) .

(٤) « دِيْوَانُ ابْنِ دَرَّاجٍ القَسْطَلِّيِّ » (١٧٥) .

وَقَالَ المُتَنَبِّي :

الـرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُـوَ أَوَّلٌ وَهِـيَ المَـحَـلُّ الثَّاني
فَـإِذَا هُمَـا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُـرْةٍ بَلَغَتْ مِنَ العَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ (١)

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم العِمَاد -حَفِظَهُ اللهُ- :

يَتَعَجَّبُ الشُّجْعَانُ مِنْ إِقْدَامِهِ كَـادَتْ شَجَاعَتُهُ تكُونُ تَهَـوُّرَا
يُعْطِي عَطَاءً لاَ يُقَاسُ بِغَيْرِهِ حَتَّىٰ تَقَدَّمَ بِالعَطَاءِ الأَبْحُرَا

١٠ ـ الوَقارُ :

وَمِنْ ثِمارِ السَّكِيْنَةِ الوَقارُ؛ لِأَنَّ السَّكِيْنَةَ هَيْئَةٌ نَفْسَانِيَّةٌ،وَالوَقارُ هَيْئَةٌ بَدَنِيَّةٌ.

أَمَّا الأَوَّلُ : لِقَوْلِهِ -سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ ﴾ [الفَتْحُ:٤].

أَمَّا الثَّاني : لِقَوْلِهِ - سُبْحَانَـهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأَحْزَابُ:٣٣].

عَلَىٰ أَنَّه أَمْرٌ مِنَ الوَقارِ؛ فَإِنَّ سُكُونَهُنَّ فِي البُيُوتِ ، وَعَدَمَ خُرُوجِهِنَّ وَتَبَرُّجِهِنَّ هَيْئَةٌ بَدَنِيَّةٌ تَنْشَأُ مِنْ اطْمِئْنَانِ الأَعْضَاءِ وَثَبَاتِها » (٢).

---

(١) « دِيْوَانُ المُتَنَبِّيْ » (١٣٩) .

(٢) « مُعْجَمُ الفُرُوقِ اللّغَوِيَّةِ » لأبي هِلَالٍ العَسْكَرِيِّ (٢٨١) .

فَيُفْهَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الوَقَارَ ؛ إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنْ السَّكِيْنَةِ فَهُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ .

وَيُعَرَّفُ الوَقَارُ بِأَنَّهُ : الإِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ الكَلامِ والعَبَثِ، وَكَثْرَةِ الإِشَارَةِ والحَرَكَةِ فِيمَا يُسْتَغْنَىٰ عَنْ التَّحَرُّكِ فِيْهِ وَقِلَّةُ الغَضَبِ ، وَالإِصْغَاءُ عِنْدَ الاسْتِفْهَامِ ، والتَّوَقُّفُ عَنِ الجَوَابِ ، وَالتَّحَفُّظُ مِنَ التَّسَرُّعِ » [1].

وَبَعْضُ النَّاسِ يَظُنَّ أَنَّ السَّكِيْنَةَ وَالوَقَارَ بِمَعْنَىً وَاحِدٍ .

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« قِيْلَ : هُمَا بِمَعْنَىٰ ... وَالظَّاهِرُ أَنَّ بَيْنَهُمَا فُرُوقًا ، وَأَنَّ السَّكِيْنَةَ هِيَ التَّأَنِّي فِي الحَرَكَاتِ وَاجْتِنَابِ العَبَثِ ، وَالوَقَارُ فِي الهَيْئَةِ كَغَضِّ البَصَرِ، وَخَفْضِ الصَّوْتِ ، وَعَدَمِ الالْتِفَاتِ » [2].

وَعَلَيْهِ فَإِنَّ السَّكِيْنَةَ تُثْمِرُ الخُشُوعَ ، وَتَجْلِبُ الطُّمَأْنِينَةَ وَيَلْبِسُ صَاحِبُهَا ثَوْبَ الوَقَارِ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« وَالسَّكِينَةُ إِذَا نَزَلَتْ عَلَىٰ الْقَلْبِ اطْمَأَنَّ بِهَا، وَسَكَنَتْ إِلَيْهَا الْجَوَارِحُ، وَخَشَعَتْ، وَاكْتَسَبَتِ الْوَقَارَ، وَأَنْطَقَتِ اللِّسَانَ بِالصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ،

---

(١) « تَهْذِيبُ الأَخْلَاقِ » المَنْسُوبُ لِلجَاحِظ .
(٢) « شَـرْحُ النَّوَوِيُّ عَلَـىٰ مُسْلِمٍ » (٥/ ١٠٠) .

وَحَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِ الْخَنَا وَالْفُحْشِ، وَاللَّغْوِ وَالْهَجْرِ، وَكُلِّ بَاطِلٍ» (١) .

وَمِنْ جَمِيلِ مَا قِيلَ فِي الوَقَارِ :

وَلِيْدًا إِذَا مَا كُنْتَ فِي القَوْمِ جَالِسًا ... فَكُنْ سَاكِنًا مِنْكَ الوَقَارُ عَلَىٰ بَالِ
وَلاَ يَبْدُرَنَّ الدَّهْرَ مِنْ فِيْكَ مَنْطِقٌ ... بِلاَ نَظَرٍ قَدْ كَانَ مِنْكَ وَإِغْفَالِ (٢)

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَاد -حَفِظَهُ اللهُ- :

تَـرَاهُ وَقُـورًا هَـادِئًـا ذَا مَهَابَةٍ ... وَتَحْسَبُهُ مِنْ قِلَّةِ النُّطْقِ أَبْكَمَا
وَإِنْ طَلَبُوا مِنْهُ الحَدِيْثَ رَأَيْتَهُ ... أَجَادَ وَأَوْفَىٰ فِي الحَدِيْثِ وَأَفْهَمَا

١١ـ العِصْمَةُ مِنَ الغَضَبِ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ أَنَّهَا تَعْصِمُ صَاحِبَهَا مِنْ طُغْيَانِ الغَضَبِ ، وَالغَضَبُ مُفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ (٣) ، وَجِمَاعُ حُسْنِ الخُلُقِ فِي تَرْكِ الغَضَبِ (٤) » .

وَمِنْ وَصَايَا النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَرْكُ الغَضَبِ .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوْصِنِي ، قَالَ : « **لاَ تَغْضَبْ ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ :**

(١) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (٢/ ٥٢٥) .
(٢) « أَمَالِيْ القَالِيِّ » (٢/ ٣٨) .
(٣) « جَامِعُ العُلُومِ والحِكَم» (١/ ٣٦٣) .
(٤) «المَرْجِعُ السَّابِقِ» (١/ ٣٦٣) .

لاَ تَغْضَبْ» (١).

قَالَ الخَطَابِيُّ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« مَعْنَىٰ قَولِهِ : «**لاَ تَغْضَبْ** » : اجْتَنِبْ أَسْبَابَ الغَضَبِ وَلاَ تَتَعَرَّضْ لِمَا يَجْلِبُهُ » (٢).

وَقَالَ ابْنُ القَيِّم -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« جَمَعَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي قَوْلِهِ «**لاَ تَغْضَبْ** » خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الغَضَبَ يَؤُولُ إِلَىٰ التَّقَاطُعِ وَمَنْعِ الرِّفْقِ، وَرُبَّمَا آلَ أَنْ يُؤْذِيَ المَغْضُوبَ عَلَيْهِ ، فَيَنْتَقِصَ ذَلِكَ مِنَ الدِّيْنِ » (٣) .

وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« وَيَنْشَأُ مِنَ ذَلِكَ -أَيْ مِنَ الغَضَبِ- كَثِيْرٌ مِنَ الأَفْعَالِ المُحَرَّمَةِ، كَالقَتْلِ والضَّرْبِ ، والفُحْشِ ، وَأَنْوَاعُ الظُّلْمِ والعُدْوَانِ ، وَكَثِيْرٌ مِنَ الأَقْوَالِ المُحَرَّمَةِ، كَالقَذْفِ ، والسَّبِّ، والفُحْشِ وَرُبَّمَا ارْتَقَىٰ إِلَىٰ دَرَجَةِ الكُفْرِ ، كَمَا جَرَىٰ لِجَبلَّةَ بْنِ الأَيْهَم ، وَكَالأَيْمَانِ الَّتِي لاَ يَجُوزُ الْتِزَامُهَا شَرْعًا ، وَكَطَلَاقِ الزَّوْجَةِ الَّذِي يُعْقِبُ النَّدَمَ » (٤).

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦١١٦) .
(٢) « فَتْحُ البَارِيِّ» لابْن حَجَرٍ (١٠/ ٥٢٠) .
(٣) «المَرْجِعُ السَّابِق» (١٠/ ٥٢٠) .
(٤) « جَامِعُ العُلُومِ والحِكَمِ» (١/ ٣٦٩) .

فَإِذَا عَلِمْتَ مَسَاوِئَ الغَضَبِ فَالسَّكِيْنَةُ تُعَوِّدُ الإِنْسَانَ الاطْمِئْنَانَ وَتَكُونُ بَلْسماً لِجُرُوحِهِ وَدَوَاءً لِمَرَضِهِ وَبَلاَئِهِ »(١).

قَالَ الشَّاعِرُ :

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُورًا كَاظِمًا ... لِلغَيْظِ تُبْصِرُ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ
فَكَفَىٰ بِهِ شَرَفًا يَبصُّرُ سَاعَةً ... يَرْضَىٰ بِهَا عَنْكَ الإِلَهُ وَيَدْفَعُ

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَاد -حَفِظَهُ اللهُ- :

يَقُولُونَ : أَغْضِبْهُ وَخُذْ مَا تُرِيْدُهُ ... فَإِنَّ لَهُ نَفْسًا إِلَىٰ الحِلْمِ تُنْسَبُ
فَسَاءلْتُهُ : إِحْسَاسُهُ مَاتَ؟ قَالَ : لاَ ... وَلَكِنَّنِي لِلدِّيْنِ وَالعَرْضِ أَغْضَبُ

١٢ـ حُسْنُ التَّصَرُّفِ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ حُسْنُ التَّصَرُّفِ فِي المَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ ، وَعِنْدَ المَصَائِبِ والمِحَنِ والكَوَارِثِ والفِتَنِ ، مِنْ وَضْعِ الأُمُورِ فِي مَوْضِعِهَا دُونَ إِفْرَاطٍ وَلاَ تَفْرِيْطٍ ، دُونَ طَيْشٍ أَوْ تَهَوُّرٍ ، وَ السَّكِيْنَةُ إِنَّمَا تَنَزَّلَتْ عَلَىٰ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي مَوَاضِعِ القَلَقِ وَالاضْطِرَابِ لِتَكُونَ دَافِعَةً لِمَنْ تَمَثَّلَهَا بِأَنْ يُحْسِنَ التَّصَرُّفَ فِي المَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ .

---

(١) «الكَشْفَ وَالبَيَانُ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ» لِلثَّعْلَبِيِّ (٣/ ١٦٦) .

١٣ـ الاعْتِدَالُ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِينَةِ الاعْتِدَالُ وَالسُّكُونُ ، فَصَاحِبُ السَّكِينَةِ لاَ تَسْتَفِزُّهُ دَهْشَةُ الفَرَحِ ، وَلاَ تَسْتَثِيْرُهُ ثَوْرَةُ الغَضَبِ ، بَلْ هُوَ مُلاَزِمٌ لِلاعْتِدَالِ فِي شَتَّىٰ أَحْوَالِهِ ، إِنْ تَكُنْ السَّرَّاءُ فَعِنْدَهُ الشُّكْرُ ، وَإِنْ تَكُنْ الضَّرَّاءُ فعِنْدَهُ الصَّبْرُ.

وَذَلِكَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِ.

فَعَنْ صُهَيْبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** » (١) .

وَعَلَىٰ هَذَا المِيْزَانِ سَارَ السَّلَفُ الأَبْرَارُ .

قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ -رَحِمَهُ اللهُ-: « أَصْبَحْتُ والسَّرَّاءُ والضَّرَّاءُ مَطِيَّتَانِ عَلَىٰ بَابِي ، لاَ أُبَالِي أَيَّهُمَا رَكِبْتُ » (٢) .

قَالَ الشَّاعِرُ :

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّنِي وَلاَ جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ المُتَقَلِّبِ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٩٩) .

(٢) « الكِتَابُ الجَامِع لِسِيْرَةِ عُمَرِ بْن عَبْد العَزِيْز » (٢/ ٤٣٧) .

وَقَالَ عَبْدُ العَزِيْزِ بْن زُرَارَةَ الكلابِيُّ :

قَدْ عِشْتُ فِي الدَّهْرِ أَطْوَارًا عَلَىٰ طُرُقٍ ... شَتَّىٰ فَصَادَفْتُ مِنْهَا اللِّيْنَ وَالبَشِعَا
كُلًّا بَلَوْتُ فَلا النَّعْمَاءُ تُبْطِرُنِي ... وَلَا تَخَشَّعْتُ مِنْ لَأْوَائِهَا جَزَعًا
لَا يَمْلَأُ الهَوْلُ قَلْبِي قَبْلَ وَقْعَتِهِ ... وَلَا أَضِيْقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْمِ العِمَاد -حَفِظَهُ اللّٰهُ- :

تَرَاهُ عَلَىٰ خَيْرٍ عَلَىٰ كُلِّ حَالَةٍ ... فَفِي سُعْدِهِ شُكْرٌ وَفِي بُؤْسِهِ صَبْرُ !!!
لَقَدْ وَلَّدَ الإِيْمَانُ فِيْهِ سَكِيْنَةً ... وَأَسْكَنَهَا فِي القَلْبِ فَهُوَ لَهَا بَحْرُ

١٤ـ الصَّلَاحُ :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ صَلَاحُ العَبْدِ فِي الحَالِ والمَآلِ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّٰهُ- :

« وَمَتَىٰ نَزَلَتْ عَلَيْهِ السَّكِيْنَةُ -أَيْ : عَلَىٰ العَبْدِ- اسْتَقَامَ وَصَلُحَتْ أَحْوَالُهُ وَصَلُحَ بَالُهُ ... وَإِذَا تَرَحَّلَتْ عِنْهُ السَّكِيْنَةُ تَرَحَّلَ عَنْهُ السُّرُوُ والأَمْنُ والدَّعْةُ وَالرَّاحَةُ ، وَطِيْبُ العَيْشِ » (١) .

قُلْ لِلأُلَىٰ ظَنُّوا الظُّنُونَ وَأَرْجَفُوا ... لَا شَيْءَ يَمْنَعُ أَنْ تَحُولَ الحَالُ

(١) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (٢/ ٢٠١) .

لِلهِ أَمْرٌ فِي المَمَالِكِ نَافِذٌ ... تَجْرِي بِهِ الأَقْدَارُ وَالآجَالُ
لاَ تَرْكَنَنَّ إِلَىٰ الوَسَاوِسِ وَاحْتَرِسْ ... إِنَّ الوَسَاوِسَ لِلنُّفُوسِ ضَلالُ (١)

١٥ــ جنَّةُ المكَارِم :

وَمِنْ ثِمَارِ السَّكِيْنَةِ أَنَّهَا جَنَّةُ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ تَجْعَلُ حَامِلَهَا يَطْمَئِنُّ لِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ وَمَحَاسِنِهَا ، وَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَسَاوِئِ الأَخْلاَقِ مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

« السَّكِينَةُ إِذَا نَزَلَتْ عَلَىٰ الْقَلْبِ اطْمَأَنَّ بِهَا، وَسَكَنَتْ إِلَيْهَا الْجَوَارِحُ، وَخَشَعَتْ ، وَاكْتَسَبَتِ الْوَقَارَ ، وَأَنْطَقَتِ اللِّسَانَ بِالصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَحَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِ الْخَنَا وَالْفُحْشِ، وَاللَّغْوِ وَالْهَجْرِ، وَكُلِّ بَاطِلٍ » (٢) .

قَالَ حَافِظُ إِبْرَاهِيم -رَحِمَهُ اللّهُ-:

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيْقَةً مَحْمُودَةً ... فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ
فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ ، وَذَا ... عِلْمٌ ، وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ (٣)

---

(١) « دِيْوَانُ أَحْمَدُ مُحَرَّم » (١٠٤٣) .
(٢) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (٢/ ٥٠٣) .
(٣) « جَوَاهِرُ الأَدَبِ » (٤٩٥) .

وَقَالَ أَبُو تَمَّام :

فَلَمْ أَجِدِ الأَخْلَاقَ إِلَّا تَخَلُّقًا　　وَلَمْ أَجِدِ الأَفْضَالَ إِلَّا تَفَضُّلا [١]

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الكَرِيْم بْن مُحَمَّد العِمَاد -حَفِظَهُ اللّٰهُ- :

مَا لِي رَأَيْتُ البَعْضَ مَاتَ ضَمِيْرُهُمْ　　وَتَكَالَبُوا بِطلابَةِ الأَرْزَاقِ ؟!!

تَرَكُوا السَّكِيْنَةَ والوَقَارَ وَإِنَّما　　هِيَ جَنَّةٌ لِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ

(١) « دِيْوَانُ أَبِـي تمَّام » (١٢٣) .

A